Gaylord
GAYLAMOUNT®
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N.Y.
Stockton, Calif.

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

السوريون في مصر

بقلم

الخوري بولس قرألي

صاحب المجلة السورية ومحررها

الجزء الاول

عهد المماليك

القسم الاول

علاقات سوريا ومصر

من اول التاريخ الى محمد علي

نشرت تباعاً في المجلة السورية

المطبعة السورية

بشارع دمنهور رقم ١٦ بمصر الجديدة

السوريون في مصر

بقلم

الخوري بولس قرألي

صاحب المجلة السورية ومحررها

.....

الجزء الاول

عهد المماليك

القسم الاول

علاقات سوريا ومصر

من اول التاريخ الى محمد علي

نشر تباعاً في المجلة السورية

المطبعة السورية

بشارع دمنهور رقم ١٦ بمصر الجديدة

BR
190
.C3
V.1

مقدمة

ان عصور الظلم والقلاقل والمنازعات المليّة التي مرت بالسوريين المسيحيين في وطنهم الاصلي منذ الاحتلال العثماني حملتهم على هجر سهولهم الخصبة وجبالهم الجميلة وسماءهم الصافية وهواءهم البليل الى أقطار المعمور الاربعة طلبًا للامان والرزق والراحة

وقد كان وادي النيل وهو أقرب البلدان اليهم مسافة ولغة ونسبًا أول مكان هجروا اليه . قضوا فيه اكثر من ثلاثة قرون وهم عاملون بالكد والهدوء والصداقة والامانة . وقد لقوا من أهله صدوراً واسعة ونفوسًا كريمة ، فعاشروهم وصافوهم وصاهروهم وعاهدوهم على المحبة والتضامن في السراء والضراء طائعين لحكامهم محترمين لشرائعهم وعاداتهم مقدمين قسطهم من الاموال الاميرية خلافًا للجاليات الغربية . وكانوا عاملاً كبيراً في تحسين حالة البلاد المالية والزراعية والصناعية والادبية وتنظيم ادارتها ومصالحها العمومية

هبطوا مصر في عهد المماليك عصر الاستبداد والعسف واضطراب الامن والضربات الوبائية . ولم يكن لهم فيه امتيازات تساعدهم ودول تحميهم من جشع الحكام واحقاد الاديان ومكايد الحساد المزاحمين ، فتبوأوا بحسن سلوكهم وذكائهم ونشاطهم مكانًا حسدتهم عليه الجاليات الاخرى . وقد استخدم الحكام مواهبهم فعهد اليهم المماليك بادارة الجمارك والدخوليات الاخرى اي مالية البلاد . وتسلموا في عهد محمد علي تجارة مصر الداخلية والخارجية بعد ان انتزعوها من يد الافرنج . ثم تولوا في عهد اسماعيل باشا وفي عهد الاحتلال الانكليزي المصالح الادارية فابلغوها الى ارقى درجات النظام . وكانت لهم اليد الطولى في نهضة مصر الحديثة

العلمية والاقتصادية . وهم اول من نفخ في صدور المصريين اخوانهم روح النهضة الاستقلالية التي تفاخر بها مصر الآن غيرهاوالتي أخذت الشعوب الشرقية الأخرى تقتدي بها فيها . وما زال السوريون يجاهدون في سبيل وطنهم الثاني بكل ما أوتوا من نشاط وذكاء ومقدرة ادبية ومالية حتى اصبحوا لا يعدون فيه ضيوفاً بل ابناءه البررة المخلصين

ومع ذلك يقوم من اخوانهم المصريين من ينكر عليهم هذه الحقوق المكتسبة بجهادهم الطويل والخدمات الجلى التي اسدوها ويعدونهم دخلاء ليس لهم حقوق الوطنيين ولا امتيازات الاجانب . والغريب ان اكثر هؤلاء الحساد من الطبقة التي تدعي العلم والرقي . فرأينا ان ننشر لنا ولهم هذا الكتاب لنثبت

أولاً ان السوريين في مصر من اقدم سكانها . فمعظم سكان الوجه البحري القدماء وبعض سكان الوجه القبلي من اصل سوري . ومنذ اول عهد التاريخ حتى الآن لم تنقطع قط علاقات القطرين المصري والسوري الجنسية والاقتصادية والعلمية والصناعية . هذا في عهد الفراعنة والبطالسة ، اما في العصر الاسلامي فقد كانت الجالية السورية ،وخصوصاً السريان الارثوذكس ، من اكبر الجاليات عدداً ونفوذاً وثروة ورقياً ، وهي التي تلمذت الاقباط في مذهبهم الحالي . ثم تركت الحروب الصليبية في وادي النيل الوفاً من الاسرى السوريين الذين امتزجوا باهلها . ولما اشتدت المنازعات الطائفية في سوريا في اوائل القرن السابع عشر كثرت المهاجرات السورية الى مصر وبلغ الكاثوليك وحدهم في القاهرة في اواسط ذلك القرن نحو ثلاثة آلاف مما يدل على ان اغلب الاسر السورية الحالية كانت موجودة في مصر قبل عهد محمد علي بزمن طويل . اما اللبنانيون او الموارنة فقد جاؤوا مصر تلبية لدعوة محمد علي باشا للاشتغال في تربية دودة القز واستخراج الحرير . ثم دعا مصلح مصر الكبير من سوريا اسراً غيرها لتعليم المصريين زرع القطن فجلبوا معهم بذرته وعلموا المصريين طريقة زرعه فاصبح هذا الصنف مع قصب السكر الذي جلبه

السوريون من بلادهم الى وادي النيل من عهد بعيد عماد الثروة المصرية . وقد نشّط هو وخلفاؤه مهاجرة السوريين الى هذا القطر لما خبروا فيهم من الهمة والذكاء والاخلاص حتى بلغوا ما هم عليه الآن من العدد والثروة والمقدرة العلمية .

ثانيًا اذا كان السوريون قد جمعوا بعض الثروة في مصر فذلك بكدهم وحسن تدبيرهم وقد قاموا بكل ما على الوطنيين من الواجبات وخدموا وطنهم الثاني بكل قواهم فكانوا عاملاً كبيراً في نهضته الحديثة.

ثالثًا المبادىء المسيحية التي تمسك بها السوريون من صبر ووداعة ومحبة وتجرد وامانة ساعدتهم كثيراً في سلوك طريق النجاح . فكانت لهم مشجعًا في الشدائد ومرشداً حكيماً في اوقات اليسر . وكان لاكليرسهم الفضل الاكبر في جمع شتاتهم وارشادهم وتشجيعهم والدفاع عن ارواحهم وشرفهم ومصالحهم وعقائدهم وهديهم للطريق السوي الذي اوصلهم الى قمة النجاح . وكان اذا حدث بين طوائفهم الكاثوليكية ما يدعو الى المشادة بادرت رومية بصوت الحبر الاعظم او المجمع المقدس المكلف رعايتهم الى حل مشاكلهم والقاء الوئام والسلام بينهم فيعودون قوة متضامنة يحسب لها اولو الامر حسابا

وكي لا يُنسب الينا الرجم بالغيب نعاهد القراء ان لا نخطو خطوة واحدة في هذا التاريخ الا ونحن مستندون الى وثائق راهنة اكثرها مخطوط جزيل الفائدة في تاريخ مصر عامة والسوريين خاصة

واهم هذه المخطوطات وجدناها في خزانة الدار البطريركية المارونية في بكركي (لبنان) حيث وقفنا على مئات من التقارير والرسائل المرسلة من وكلاء البطاركة ووجهاء الطائفة الى الكرسي البطريركي وفيها معلومات ذات قيمة كبيرة خصوصاً في تاريخ المغفور له محمد علي باشا اذ كان السوريون ذراعه الايمن في اغلب مشروعاته الاصلاحية والاقتصادية

وعثرنا في دير اللويزة مركز رئاسة الرهبنة الحلبية المارونية بلبنان على وثائق

جليلة الفائدة اهمها سجل القس ارسانيوس قرداحي الذي جاء مصر سنة ١٨٢٠ وترك لنا فوائد كثيرة عن احوالها وتجارها . ووجدنا ايضاً في البطركخانة المارونية بشبرا سجلات ومفكرات ثمينة اكثرها للقس أنطون مارون الحلبي من اسرة بيروتي الذي خدم الطائفة في دمياط والقاهرة من سنة ١٨٠١ حتى وفاته سنة ١٨٤٧

أما جداول الأسر السورية من سنة ١٦١٨ الى ١٨٠٥ فقد رتبناها نقلاً عن سجلات حضرات الآباء الفرنسيسكان في القاهرة والاسكندرية . وفيها معلومات لا يستهان بها عن حالة السوريين الكاثوليك في مصر الذين خدمهم آباء هذه الرهبنة في الروحيات أكثر من قرنين

ونحن نأسف لقلة معلوماتنا عن طائفة الروم الارثوذكس السورية اذ لم نجد لهم ما يروي غليلاً قبل ظهور الصحافة في مصر . وسبب ذلك اندماجهم كطائفة في الشعب اليوناني وعدم وجود سجلات لدى هؤلاء قبل سنة ١٨٦٠ . وأغلب الذين استشرناهم في أمرهم يعتقدون ان مهاجرة اكثرهم الى القطر المصري حديثة أي من عهد الخديوي اسماعيل باشا وخلفائه

وقد قسمنا الجزء الاول من تاريخ السوريين في عهد المماليك الى ثلاثة أقسام . تكلمنا في الاول منها عن علاقات مصر وسوريا من اول التاريخ حتى محمد علي باشا . وفي الثاني اثبتنا جداول الاسر السورية في القاهرة والاسكندرية من سنة ١٦١٨ حتى سنة ١٨٠٥ وبحثنا في الثالث عن حالة السوريين في عهد المماليك .

مصر الجديدة في ١٥ ابريل سنة ١٩٢٨

الخوري بولس قرألي

القسم الاول

علاقات سوريا ومصر من أول التاريخ الى محمد علي

الفصل الاول

سوريا وسكانها القدماء

جعل الله القطر المصري وسوريا شقيقين يربطهما الجوار والمصالح والعقيدة ومنذ بزغ شعاع العلم وأطل فوق ظلمات الازمنة الغابرة فتبين لنا وجه التاريخ وأخذنا نميز ملامحه رأينا هذين البلدين مرتبطين بعلاقات متينة جنسية وسياسية ودينية واقتصادية وعلمية يساعد الواحد منهما الآخر. وكلما اشتد ساعد أحدهما ضم أخاه اليه فلم ينفصلا قط في مراحل التاريخ الطويلة التي قطعاها جنباً الى جنب.

ولئلا يضل القارىء معنا السبيل سنتدرج في بحثنا عن هذه العلاقات من عهد الفراعنة الى عهد البطالسة فعهد الدول العربية وننتهي بعهد المماليك والدولة التركية. ورغبة في عدم التشويش على القارىء بتجزئة كل من هذه المباحث الاربعة الى فصول. رأينا أن نتتبعها الواحد بعد الآخر في فصول متوالية تعود كلها الى قسم واحد وستكون هذه خطتنا في الاقسام الأخرى من هذا الكتاب وعلى الله الاتكال في البدائة والنهاية (١)

---

(١) نعتمد في ما نسرده بعجلة عن علاقات المصريين والسوريين في ايام الفراعنة على كتاب مسبرو في الشعوب الشرقية القديمة وهو اكبر ثقة في تاريخ الشرق القديم عموماً ومصر خصوصاً وظل مدير الآثار المصرية مدة طويلة كما اننا نعتمد كثيراً في القسم الاول من هذا الكتاب على كتاب « تاريخ سوريا » الذي اصدره السعيد الذكر للطران يوسف الدبس اسقف بيروت الماروني وجمع فيه في ثمانية مجلدات اقوال اكبر العلماء عن سوريا. وعلى كتاب ملخص تاريخ سوريا لحضرة الاب هنري لامنس اليسوعي الذي صدر في جزئين سنة ١٩٢١ وسنرشد القارىء في كل موضوع نطرقه الى اهم مصادره

حدود سوريا وأوصافها — . يلعب الزمان بكل شيء يجده على وجه البسيطة من حي وجامد حتى بحدود البلاد. وكأنها مصنوعة من المطاط تارة تتسع بين يديه وطوراً تنكمش . فقد شاهد التاريخ سوريا واسعة تضم بين تخومها بلاد ما بين النهرين وأرمينيا وبعض آسيا الصغرى وجزءاً من بلاد العرب . وقد استقرت حدودها في أيام الفراعنة والرومان وبعض ايام الدولة العربية فكانت متاخمة شمالاً لآسيا الصغرى من خليج الاسكندرونة الى نهر الفرات وشرقاً لنهر الفرات المذكور والبادية الى بلاد العرب . وجنوباً لقسم من العربية المعروفة بصحراء التيه الى تخوم مصر . وغرباً للبحر المتوسط المعروف قديماً ببحر الروم . وطول هذه التخوم من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلو متراً وعرضها المتوسط من الغرب الى الشرق نحو اربعمائة وخمسين كيلو متراً (١)

كانت سوريا تعرف عند المصريين الاقدمين باسم شارو (٢) يفصلها عن مصر شبه جزيرة (سيناء) ولو لم يضع الخالق بين القطرين حبة الرمل هذه لكانا شخصاً واحداً ذا روح وجسم واحد يخفق في صدره قلب واحد واسع. غير ان حبة الرمل هذه هي التي جعلتهما اثنين لكنهما شريكان في السراء والضراء . وكان المصريون يطلقون اسم زاهي على القسم الشمالي من فينيقيا (٣)

ومن يلقي نظرة على خارطة سوريا يراها منبسطة بين الرمال والبحار تخططها في طولها من الشمال الى الجنوب كالتطريز في ثوب الحسناء سلسلة من جبال شامخة مكسوة بالاحراش محشوة بالمعادن مملوءة بالينابيع التي تنفجر من جوانبها وتدر على السهول والمنخفضات انهاراً ترويها وتنيلها خصباً عظيماً ونضارة نادرة . ويمنعنا الخجل ان نقول عن امنا انها اجمل بقاع الارض . فقد جمع الخالق فيها كل محاسن الطبيعة من اعتدال الطقس وجودة المناخ وخصب التربة وحسن الموقع وجمال المناظر

---

(١) راجع تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس الجزء الاول صفحة ٢ ولامنس ج ١ صفحة ٢

(٢) تاريخ الشعوب الشرقية القديم لماسبرو صفحة ٢٠٠ (٣) ماسبرو صفحة ٢١٨ و ٢٣٦ و ٢٣٩

ما لا يجتمع كله في بقعة واحدة. تسير فيها فصول السنة الاربعة بانتظام ودقة نادرة. فصيفها وجه صبوح لا يكدره غيم ولا يدمعه مطر. وخريفها رزين يقودها رويداً رويداً الى حضن الشتاء حيث الهواء بارد لكنه جاف منعش والامطار كريمة مروية والثلوج متلألئة تذوب تحت ابتسامة الربيع الا في الاعالي الغير مأهولة حيث تظل بهجة للعيون وبرداً على القلوب

هل نظرت الى سوريا بثوبها الربيعي الفتان وخضرته الناعمة كخد الطفل وهو موشى بالزهور الرائعة الالوان يلتقط شذاها النسيم البليل فيوزعها على ساكنيها. اذا رأيتها بهذه الحلة واستنشقت انفاسها الزكية اصبحت بها من الهائمين [1]

واذا قصدتها في الصيف وجدت سكانها قد هجروا سهولها وسواحلها هرباً من مضايقة الحر وصعدوا الى جبالها القريبة حيث الينابيع الباردة العذبة والنسيم العليل المنشط والمناظر الخلابة التي تسحر العيون وتشرح الصدور. وعند ما يقبل الخريف البارد يعودون الى السهول الخضراء الضاحكة لهم او الى السواحل حيث تقابلهم انفاس البحر الدافئة

سكانها الحاليون — وقد منح الخالق سكانها كأمهم جمال المنظر وشدة البنية وذكاء نادراً ونشاطاً واقداماً. وكأن ذكاءهم المفرط جنى عليهم فيحدو افرادهم على الاعتداد بالذات فالاستقلال الفردي فالتحاسد فالتزاحم فالتنافر. فهم لا يرضون بسيادة احد من عليهم ولكنهم يخضعون مكرهين للغير الاجنبي. لذلك هم غالباً منقسمون ومحكومون ولا تراهم حاكمين الا نادراً. وقد قال عنهم اللورد كرومر « ان السوري بمفرده أقوى منه بمجموعه »

وقد اطمع انقسامهم وجمال بلادهم وثروتها الفاتحين في كل عصور التاريخ فقصدها الفراعنه مراراً واجتاحها الاشوريون اخرى واحتلها اليونان والرومان ثم العرب والترك واخيراً الفرنسويون

وبالرغم من افراط الغزاة في فتح مدنها العامرة وسلب خيراتها والتنكيل

(١) راجع وصفها في ماسبرو ص ٢١١ وفي لامنس صفحة ١

لسكانها لم يصلوا الى اطفاء شعلة ذكائهم ورغبتهم في الوصول الى اعلى مدارج التمدن والمعارف الالهية والبشرية . فقد كانت سوريا دائماً منبع العلوم الدينية والوضعية ومنارة يسطع نورها الى اقاصي المسكونة وتبهر عيون الفاتحين انفسهم . وفيها انتشرت الديانات اليهودية والنصرانية والاسلامية التي تحكم الآن عقول العالم . وقد كانت سوريا من ايام الفينيقيين قديماً حتى عهد الاتراك اخيراً منشأ للنهضات الادبية في الشرق كما سيأتي بيانه في حنينه بتوفيق المولى

قال الجنرال بيوت مندوب المفوض السامي في حلب في خطبة وداع ألقاها امام جمهور الحلبيين : «اننا لم نأت الى هنا لكي نمدن سوريا فانكم قوم متمدنون وقد وصلت حضارتكم الى فرنسا عند ما كانت تدعى «غوليا» وعنكم أخذنا المدنية وبكم اقتدينا . أن بلادكم تجمع ثلاث مدنيات اليونانية والمصرية والاشورية فلا تعوذكم المدنية بل تنقصكم التطبيقات العلمية الفنية وأنتم قادرون على تحصيلها بسهولة لانكم على جانب عظيم من الذكاء والحذق كما عرفت بالخبرة والتجربة»(١)

هذا شأن سكانها الحاليين . أما الاقدمون فاهمهم ثلاثة الحثيون في الشمال والفينيقيون في الوسط والعبرانيون في الجنوب . ونحن نقصد في هذا الكتاب الفرعين الاولين

الحثيون — هم سلالة حث بن كنعان بن حام بن نوح . وحث ابن عم مصرائيم بن كنعان الذي جاء كما قال الكتاب المقدس من بين النهرين ليقيم على شاطيء النيل (٢)

انحدر الحثيون كما يرجح من القوقاس الى سوريا مجتازين جبل طوروس . فاحتلت قبائلهم شمال سوريا وكيليكية وتابع بعضها المسير حتى وادي ممرا وحبرون (الخليل) أما معظمها فبقي في شمال سوريا بين الفرات والعاصي . ولم تلبث مملكتهم المعروفة قديماً عند المصريين باسم «خاتي» حتى أصبحت اغنى أسواق الشرق . وكانت لهم

---

(١) راجع جريدة الشعب في ٢٧ كانون الاول سنة ١٩٢٤ صفحة ٦

(٢) سفر التكوين ص ١٠ عد ٣ — ٦

مدنية راقية وتجارة ناجحة ونبغ فيهم كتاب وعلماء . اما ديانتهم فتشبه كل ديانات الكنعانيين . كل مدينة كان لها اله يدعى « صدخو » والهة تعرف بعشتاروت. وكان يحكم مدنها اقيال خاضعون لرئيس اكبر يلقبونه سارو او سيراء يقدمون له ما يحتاج من الجنود [١] . وكانوا كسائر سكان السهول يكثرون من الخيول التي كانت مع المركبات تؤلف معظم قوتهم

وكانت اعظم مدنهم كركميش في شمال الفرات . وتورميدا اوتبساك في جنوبه، وأمنع حصونهم قادس التي طارت شهرتها في حروبهم مع المصريين. وجنوبها خلوبو (حلب) التي كان لحقولها شهرة عظيمة . وقد تطرفوا شمالاً الى آسيا الصغرى وملكوا سهول كيليكيه وكبادوكيا. وكانت لهم صولة كبيرة خصوصاً في شمال سوريا حتى كانت البلاد تسمى باسمهم . وقد غالبوا الاراميين على دمشق فاصبحت دولتهم تمتد من لبنان الى الفرات . وركبوا البحار واسسوا لهم جاليات في بلاد اليونان وايطاليا وقبرس [٢]

ولما سطع في افق الشرق نجم تجلت فلاصر اول ملوك نينوى جارتهم (١١٢٠ ق.م) كان نجم الحثيين اخذ يتضاءل نوره لما اصابه من الضعف في حروب المصريين المتوالية . ولما عبر ملك نينوى المذكور الفرات اليهم وجدهم امة ضعيفة ملتفة حول كركميش ومؤلفة من اثنتي عشر دويلة تقتسم سهول سوريا . فجزفهم وسلبهم. فافاقوا من هذه الضربة وجمعوا قواهم واتحدوا ضد اشور نزير بال الثاني حفيده وكسروه شر كسرة قرب كركميش فاستردت سوريا سيادتها . ولكنهم ما لبثوا ان اختلفوا . فتملك اشور نزيربال الثالث بلادهم ثانية سنة ٨٧٧ ونهبها . وكانت زراعتها وتجارتها في ازهر اوقاتها . فجمع منها من الذهب والفضة والنحاس والبرفير والصندل والعاج والقمشة الكتان مالا يحصى عدده . ولما جاء الفرس الى سوريا لم يجدوا للحثيين أثراً [٣]

---

(١) ماسبرو ٢١٥ — ٢١٦ (٢) راجع ماسبرو ٢٥٧ وخارطة سوريا الموجودة في آخر كتابه . راجع ايضاً تاريخ الدبس ص ١٦٦ ، ١٨٩ و ٢١٤ (٣) راجع ماسبرو ص ٣٥٠ و ٣٥٤ و ٤٣٠ و ٧٦٦

الفينيقيون — الفينيقيون فصيلة من قبيلة كنعان بن حام بن نوح . فهم والحثيون اخوة وحام جدهم هو والد مصرائيم . فالسوريون سواء كانوا من اصل حثي او فينيقي هم اولاد عم المصريين وهم والكوشيون ، الذين نزح قسم منهم الى اعالي النيل من اصل واحد . ويرجح انهم سكنوا معهم مدة على شاطىء خليج العجم من جهة بلاد العرب ، ثم تفرقوا في انحاء سوريا . فمنهم من قطن وادي الاماتوس (اللكام) والسهول التي تمتد قبلي الكرمل حتى صحراء التيه وحدود مصر . والباقون سكنوا سواحل لبنان وفلسطين بين البحر والجبال . وقد اثرت طبيعة البلاد على طريقة معيشة هذين الفرعين واخلاقهم وعاداتهم وان كانوا من اصل واحد . فكنعانيو الداخلية صاروا زراعاً ورعاة ، وانقسموا الى قبائل عديدة كان بعضها في حرب دائم مع البعض الآخر . اما كنعانيو السواحل ، فلضيق الشقة النازلين فيها بين البحر والجبال ، اصبحوا بحارة وتجاراً . وهم المعروفون قديماً باسم فينيقيين [1] ولم يلبثوا ان اجتمعوا في ثلاثة فروع مستقلة

ففي القسم الشمالي الذي كان يسميه المصريون «زاهي» كانت دولة ارواد ، وهي جزيرة ازاء طرابلوس على بعد ثلاثة كيلومترات من الارض ، بسطت ولايتها على سكان السواحل القريبة منها وعلى داخلية البلاد . فاستولت على جبلة شمالاً واخضعت حماة مدة ثم ولاية طرسوس وعمريت ثم سيميرا قرب مصب النهر الكبير

والقسم الثاني كان مقيماً حول جبيل ، وهي أقدم مدينة بنيت على وجه البسيطة . كانت مركزاً للعبادة ومحجاً لسوريا . بنيت على نهر ادونيس (نهر ابراهيم) الذي قتله خنزير بري في الغينه ، حيث يرى مدفنه الى الآن ، وأقيم له معبد في أفقا عند مخرج النهر

وجنوبيها بيروت وكانت لها أيضاً أهمية كبيرة في السياسة والدين .

والقسم الثالث كان مؤلفاً من صيدا التي يرويها « النهر الاولي » ومن ابنتها

---

(١) راجع الدبس ص ٢٥٥ وماسبرو ص ١٢٤ ، ١٦٧ ، ٢١٦

صور التي كانت طائعة لها. وكانت املاك صور واصلة الى جنوب الكرمل وكان المصريون يطلقون على مقاطعة صور وصيدا اسم كانيت [١]

صيدا ومستعمراتها — لم تكن للصيدونيين أرض يكتفون بزراعتها فعمدوا الى شق البحر بمراكبهم. ولما لم يكن أحد من الامم المتمدنة القديمة يجسر ان يركب خشباً يطفو به فوق الماء، ولو الى مرمى حجر، اخترع الفينيقيون المراكب واقتحموا بها البحار معاندين الرياح والعواصف حتى وصلوا الى اقاصيها. فجلبوا المعادن والاخشاب اللازمة لصناعتهم مع الحجارة الثمينة. وكانوا يتاجرون بها وبمصنوعات أيديهم وينشرون في الوقت نفسه معارفهم. قال بوجولا الافرنسي:

« كانت صيدون أول مهد للعلوم البشرية والصناعة. فهيأت بذلك أسباب الحضارة في العمور. جعلت مصر حكمتها وعلومها أسراراً، اما فينيقية فأراها كأولئك الآلهة الذين كانوا يحملون على رؤوسهم منارة في وسط البحار. وأخص ما يحق لفونيقي الافتخار به اختراعات الملاحة والكتابة » [٢]

وكانت جزيرة قبرس أول محطة للفينيقيين في البحر لقربها من شطوطهم. افتتحها قبلهم الحثيون. أما الفينيقيون فبنوا أهم مدنها وساروا منها الى الشمال فبلغوا الارخبيل، واحتلوا في مدخل رودس التي اختلطوا بأهاليها، ورقوا الحضارة درجات فيها وفي مجاوريها، ووصلوا من جهة منها الى جزيرة اكريت حيث بنوا مدينة ايتانوس، ومن جهة أخرى الى جزيرتي ثاره وقيثاره فأدخلوا فيهما عبادة عشتروت، أي الزهرة الفينيقية التي توزعت منها عبادة افروديت معبودة اليونان. وقد خلفوا آثار اقامتهم في اولياروس وانتيباروس ويوس وسيروس (سيرا). واكتشفوا معادن الفضة في جزيرتي سيفنوس وسيمولوس. وكلها في أرخبيل بحر الروم شمال رودس وغرب الاناضول. ثم توغلوا حتى جزيرة تاسوس (قرب شاطىء الروملي) واستحوذوا عليها طمعاً بمعادنها الذهبية.

(١) راجع الدبس ص ٢٦٦ و٢٦٧ ومسبرو ٢١٧ و٢١٨ اما اسما الفينه وأفقا وآثارهما وباقية الى الآن (٢) انتهى باختصار راجع *Correspondance d'Orient no 137* وراجع الدبس ٢٧٢

وكان ملاحوهم يعدون ذخائرهم في هذه الجزيرة ويسيرون منها سفنهم الى الشمال أيضاً. فيعبرون بوغاز الدردنيل وبحر مرمرا والبسفور ويتصلون الى البحر الاسود غير مبالين بعواصفه التي تخشاها سفن هذا العصر . حتى انتهوا الى جنوب جبل قاف . فشحنوا منه الذهب والرصاص وخصوصاً القصدير الذي كان لازماً العمل الصفر (البرونز) . وكان لهم محطات ومستعمرات في تلك البحار البعيدة

ثم صاروا يسيرون مراكبهم على شطوط الابير (البانيا الجنوبية) وايطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية . وانشأوا لهم فيها مستعمرات ومحالاً تجارية . ووصلوا أيضاً الى قرطاجنة الشهيرة (في ولاية تونس) فبنوا فيها كمياه ، حيث شيدت بعد ذلك مدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة منها، هيبون

وبينما كانت سفنهم تمخر البحور كانت قوافلهم تطوي البيد للتجارة . وقد تطرفوا الى سائر انحاء سوريا وبلاد العرب وبلاد الكلدان وارمينيا وفتحوا جميع الطرق التجارية من الشرق الاقصى (أي من الهند والتركستان) وبلاد الكلدان حتى جبل قاف . وكان لهم في جميعها محطات ومستعمرات اخصها حماة على نهر العاصي وتبساك على نهر الفرات من جهة بادية تدمر، ونصيبين على مقربة من ينبوع دجلة وغيرها من الاماكن التي كان يتفاخر قدماؤها بانهم من الفينيقيين [1]

صور ومستعمراتها — : وتحالف في آخر الامر سكان الارخبيل واليونان وايطاليا وكريت وصقلية على صيدا، فصنعوا لهم سفناً واتفقوا مع الفلسطينيين جيران صيدا ففاجأوها براً وبحراً وخربوها. فانضم سكانها الى صور التي خلفتها في سؤددها بعد تفكك عرى هذه المحالفة واخذت تتبع خطة جارتها . فعاد الفينيقيون الى نشاطهم الاول في الملاحة والتجارة وتوسعوا فيها وقصدوا جميع اقطار العالم المعروف وقتئذ. فبنوا لهم مستعمرات اوتيكا في الغرب (من املاك تونس) ثم تقدموا غرباً واقاموا لهم نزلاً في نوميديا وموريتانيا (فاس)

ومن هناك عبروا الى اسبانيا وعمروا قادس، فتواترت اسفارهم وكثرت جالياتهم

(١) راجع الدبس ٢٧١ — ٢٧٨ ومسبرو ٢٧٨ — ٢٧٩ ثم ٢٩١ — ٢٩٥ و ٣٧١ و ٣٧٤

في تلك البلاد، وبنوا فيها ترشيش وسكس وفلاكا وألماريا. وكانت كرتايا (غربي جبل طارق) من مستعمراتهم ايضاً. وذكر لهم المؤرخون مستعمرات اخرى ومدناً في شمال هذه البلاد وشرقها حتى سفح جبال البيرينيه (التي تحد الآن اسبانيا وفرنسا). ولم ينقض قرن بعد ان عمر الفينيقيون قادس حتى تولوا اخصب الاراضي واغناها في اسبانيا. اعني اندلس العرب التي كانت تسمى اتيكا. وكانت تجارتهم في اسبانيا رابحة اي ربح، فقد قال ارسطو الفيلسوف ان الذين اتوا منهم الى ترشيش استبدلوا زيتهم [1] ومصنوعاتهم بمقدار كبير من الفضة حتى لم تعد سفنهم تسعه. فصنعوا من الفضة ادواتهم وآنيتهم كلها حتى اناجر سفنهم. فكانوا يجلبونها الى آسيا وبلاد اليونان ومصر وآفاق أخرى، واكتسبوا من وراء ذلك ثروة تفوق الحصر

ولما راجت تجارتهم في افريقيا واسبانيا اختاروا مالطه محطة لهم. فاحتلتها جالية منهم. ولما انفصل سكان صقليه عن محالفة الليبيين والبلاج اغتنم الفينيقيون الفرصة وتولوا التجارة في صقلية ولم يعد لهم مزاحم فيها. لان اليونان لم يعودوا الى هنالك الا بعد ثلاثة قرون. وعمروا في صقليه مدناً عديدة منها مكارا وبالرمو وجعلوا من جزيرة ماكلوريا (بين صقلية وافريقيا) محطة لهم ومستودعاً للذخائر والادوات اللازمة للاسفار

ثم انهم عمروا مدينة كراليس الشهيرة الآن بكلياري في سردينيا ثم مدينة نورا على شاطئها الغربي، فتاجروا باصوافها الغزيرة ونحاسها ورصاصها وما زالوا حتى استحوذوا على الجزيرة كلها. ولم يقتصروا على ايصال سلعهم الى مدن اوربا الساحلية بل توغلوا في فرنسا والمانيا الى بحر البلتيك براً والى جزر بريطانيا بحراً

وتوصلوا بمراكبهم هذه الشراعية الى الدوران حول قارة افريقيا قبل فتح خليج السويس. فادهشوا العالم بشجاعتهم ومهارتهم. فقد ساروا من البحر الاحمر الى البحر الجنوبي (الاوقيانوس الهندي) وكانوا اذا نفذت ذخيرتهم يقيمون ويزرعون

(١) زيت سواحل لبنان ما زال الى الآن غزيراً ومشهوراً بجودته

الارض ويجمعون حصادها، ثم يعودون الى متابعة رحيلهم، حتى بلغوا في السنة الثالثة من سفرهم الى اعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) فاجتازوه ووصلوا منه الى مصر. وكان للفينيقيين القدح المعلى في العلوم عموماً والهندسة خصوصاً. والجميع يعلمون انهم قاموا ببناء هيكل سليمان الشهير في اورشليم احسن قيام. فكان منهم المهندسون ومديرو البناء والبناؤون والنحاتون والنجارون واكثرهم من جبيل، لان اهلها كانوا اشهر اصحاب الصنائع في فونيقي وفي العالم المتمدن. وقد جلبوا لهذا الهيكل اخشاب الارز على مراكبهم كما هو مشهور (١)

فهل بعد ذلك من همة، وهل يستغرب معاصرونا نشاط السوريين في التجارة وركوبهم الاخطار الى اقاصي الارض وقد قال مثلهم العامي: اعرج حلب وصل الى الهند» فكيف لا يحطون الرحال في مصر وهي جارتهم وشريكتهم في اللغة والعادات والدين

هذا كان شأن اجدادهم مع العالم القديم، فلننظر الى ما كان شأنهم مع المصريين معاصريهم ولنبدأ في ما كانت عليه علاقاتهم الجنسية والسياسية

---

(١) راجع الدبس ٢٨ — ٢٩٠ وما سيرو ٢٧٨ و٢٧٩ و٢٩١ — ٢٩٥ و٣٧١ و٣٧٤

الفصل الثاني

علاقات المصريين الجنسية والسياسية مع الحثيين والفينيقيين

بدأت مهاجرة السوريين الى مصر من اول عصور التاريخ . فقد حل الكوشيون منهم في اعالي النيل جنوباً ، واستوطن الحثيون منهم الدلتا من سواحل البحر حتى الفيوم . وقد جاؤوا مع الملوك الرعاة . ولما طرد ملوك طيبة الملوك الرعاة ، ابقوا مواطنيهم السوريين في مصر لينتفعوا من خدمتهم للارض ، ثم اخذوا بدورهم يغزون سوريا ويجلبون منها الى وادي النيل الرهائن العديدة من اشرافها وآلاف الاسراء من ابنائها

١ — الكوشيون

يقول العالم مسبرو مؤرخ مصر ، في كلامه على مشاغل الدولة المصرية الثانية عشرة (١) « كانت تجول في الصحراء وراء الشلال الثاني مئة قبيلة غريبة الاسماء ، مستعدة دائماً للغزو ، دائماً مغلوبة ، دائماً ثائرة ، وكانت من الجنس الابيض من فصيلة كوش التي ظهرت بعد حرب ممفيس بقليل على شواطئ البحر الاحمر . فازاحت السودانيين وطردتهم الى مقاطعات النيل الاعلى . فهذه القبائل الخارجة من الاصل نفسه الذي خرج منه بعدئذ الفينيقيون ، جلبت معها الى مصر مبادئ حضارة لا تقل شأناً عن حضارة مصر . وقد فطن الفراعنة الى وجوب اخضاعها قبل ان ترسخ قدمها في البلاد ، فسيروا عليها كل قوات المملكة ، وتوصلوا بعد جهاد وثبات طويل الى ان يضموا في آخر الامر معظمها الى سلطتهم . اما العصاة فطردوهم الى جهات الجنوب واستبدلوهم بجاليات من الفلاحين »

٢ ـ الملوك الرعاة

اختلف العلماء في اصل الملوك الرعاة الذين غزوا مصر وحكموها ستة قرون متوالية . فذهب المؤرخون العرب الى انهم عمالقة الشام أو الاراميون ، ومن رأي

(١) تاريخ الشعوب الشرقية ص ١٢٤

بعض مؤرخي الافرنج مثل سايس انهم مجموع من الحثيين والاموريين. أما مانيتون (١) المؤرخ المصري فأكد انهم من الفينيقيين . ولكن اغلب المؤرخين المتأخرين مثل ماريت ولارمان ومسبرو، مالوا الى رأي الأب فيصر دي كارا القائل بانهم مجموع من ملوك الحثيين . وسواء كان الملوك الرعاة دمشقيين أو فينيقيين أو حثيين فهم ولا ريب سوريون طمعوا في خيرات مصر، فاجتمعوا وتعاقدوا وزحفوا اليها تحت قيادة شالاني أحد ملوك الحثيين . فدكوا معاقلها واحتلوها من البحر المتوسط حتى الفيوم . وكانوا بكثرة عظيمة حتى ان مانيتون شبههم بسحابة من الجراد

ولما استتب لهم الامر ورأوا المصريين مضعضعين ضعفاء لايخشى بأسهم ، اقاموا في كل انحاء القطر المصري حاميات ضمنت لهم خضوع المقاطعات المجاورة ، وحولوا جهدهم الى صد غارات العرب من جهة الصحراء الشرقية . فشيد الملك شالاني شرقي خليج السويس مدينة آفاري الحصينة المعروفة عند المصريين باسم هوارو ، وجعل فيها معسكراً عظيما يسع مئتين واربعين الف جندي ، وكان يزورها سنوياً ليعرض فيها الجيوش ويدفع رواتبها ويوزع عليها المؤن . ولم يتمكن الملوك الرعاة من اخضاع القطر المصري الا بعد جهاد مئتي سنة . ومع ذلك فلم يحتلوا إلا الوجه البحري منه . أما النوبة وطيبة وما يليهما فاكتفوا بأخذ الجزية من اقيالها

وقد حسب المؤرخون ان دخولهم الى مصر كان في سنة ٢٧٥٠ قبل المسيح وقد الفوا الدول الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة من المملكة المصرية وظلوا مالكين في مصر نحو ستمائة سنة

وكان المصريون في بدء الامر يكرهونهم كعزاة ، ولكنهم ما لبثوا ان الفوا حكمهم واستصوبوا تدابيرهم . لأن الملوك الرعاة فضلوا استقلال وادي النيل على سلبه وأبقوا الكتبة والموظفين الوطنيين في خدمة الخزينة والادارة ، وأعادوا الى بلاط الفراعنة كل مجده الاول وحاشيته من وزراء ومستخدمين وخدمة ، واعطوا الوطنيين تمام الحرية في إقامة شعائرهم الدينية. ففتحت تانيس العظيمة (٢) ابواب هياكلها

---

(١) مانيتون كاهن مصري عاش في القرن الثالث قبل المسيح والف كتاباً في تاريخ مصر القديم لم يبق منه غير فقرات حفظت في كتب يوسيفوس واوسابيوس وبوليوس الافريقي راجع الدبس ص ٢٢٩

(٢) كانت تانيس في منتصف بحيرة المنزلة . وقد احرقها الصليبيون سنة ١١٥٢ راجع تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ج ١ ص ٢٩٥

للعبادة وأخذ عباد أو زيريس يبنون فيها لآلهتهم ماشاءوا من القصور . وقد عدل السوريون الغزاة ديانتهم نفسها بعض التعديل خوفاً من أن يجرحوا عواطف المصريين الدينية . فأصبح إلههم سوتك الاله شات المصري

٣ — مهاجرة السوريين فى أيام الملوك الرعاة

وقد شجع الملوك الرعاة مهاجرة مواطنيهم السوريين الى وادي النيل تشجيعاً عظيما . واليك ماقاله مسبرو (١) في هذا الصدد

« اذا كان السوريون قد نزحوا بكثرة الي أرض مصر في أيام الفراعنة المصريين، مع أن هؤلاء كانوا يعاملونهم أحياناً كعبيد وغالباً كرعايا ، فكم بالاحرى كانت مصر تجتذبهم في عهد الملوك الرعاة مواطنيهم ، خصوصاً ان هؤلاء الملوك كانوا يشعرون باحتياج عظيم الى تقوية عنصرهم في وسط شعب معادٍ لهم . ثم ان مواطنيهم الذين كانوا سبقوهم إلى مصر، لم يكونوا بعد نسوا لغتهم وعاداتهم القديمة فكانوا يستقبلون اخوانهم بكل حفاوة. وقد فتح البلاط الملكي المصري مراراً لقبول وزراء ومستشارين ووصيفات من سوريا . وعزز معسكر آفاري بعدد عظيم من المجندين السوريين والعرب وكانت الغزوات والمجاعات والحروب الاهلية في سوريا تحمل الى وادي النيل افراداً عديدين من أهلها ، بل عائلات وقبائل بأسرها ، كما تشهد بذلك مهاجرة العبرانيين الذين ظلوا في مصر مدة اربعمائة وثلاثين سنة. وكان لهم فيها شأن عظيم كما هو مشهور ومدون في الكتاب المقدس »

٤ — خروج الملوك الرعاة من مصر

حكم الملوك الرعاة مصر اكثر من أربعة قرون من غير أن يناوأهم احد .وقد كانوا في بدء امرهم حسبوا حساباً لقبائل العرب وعشائر سوريا، ولكنها لم تقلقهم بل اسعفتهم بانضمامها اليهم ، لما كان بينها وبينهم من صلات اللغة والدم والموطن والمصلحة . وقد هجرت الى مصر قبائل عديدة منهم فاستوطنتها واستغلتها . لكن سكنى ملوك الرعاة في الوجه البحري كانت خطأ كبيراً :فقد كانت مدينة تانيس في أول الامر عاصمتهم الكبرى ،ثم حلت محلها « بوبست» (الزقازيق) . وكانت مدينة آفاري في الجهة الشرقية من خليج السويس معقلهم الاكبر . فكانوا بعيدين

(١) صفحة ٢٠٤

عن مركز الشعب المصري . ولو أقاموا في مصر العليا لاكرهوا الملوك الوطنيين على التوغل في الصحراء والابتعاد عن شعبهم ، او على الاقل ، كانوا استطاعوا مراقبة حركاتهم ومنعهم من تهييج قومهم وتجهيز العساكر عليهم

وأشهر حرب وقعت بين الملوك الرعاة وملوك طيبة هي الحرب الاخيرة . فقد دامت نحو قرن ونصف وانتهت بفوز الوطنيين . ويظهر من مضمون البردي المنسوب الى سالبار ان سبب هذه الحرب كان دينياً. لأن «الملك أبابي أقام على باب قصره معبداً لشات إله الحثيين وكان متين البناء بديع الصنع . وجعل لهذا الاله اعياداً وعين له ضحايا يومية ، وأرسل الى ملك طيبة وفداً يغريه على تفضيل عبادة شات على عبادة الاله رع آمون ». فكان هذا الطلب قدح الزناد لثورة الوطنيين فنهضوا وأخذوا يزحزحون الملوك الرعاة من معقل الى آخر حتى حاصروهم في مدينة آفاري بجيش يبلغ اربعمائة وثمانين الف رجل . وكان الملوك الرعاة سبقوا فحاطوا هذه المدينة بسور رفيع منيع احتفاظاً بأرواحهم وجيوشهم وأموالهم. فقطع الوطنيون عنهم الزاد وضايقوهم لكنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم واضطروا الى مصالحتهم على شرط ان يتركوا مصر ويذهبوا آمنين حيثما شاؤوا مع اموالهم وعيالهم وحاشيتهم . فخرج الرعاة من مصر ولكنهم لم يعودوا الى وطنهم سوريا خوفاً من ملوك الاشوريين الذين كانوا قد بدأوا بغزوتها . فاستقروا حيناً في فلسطين

اما ملك طيبة فلم يهدأ له بال وخشي من عودتهم فلحقهم بعد خمس سنوات الى مقرهم الجديد وحاربهم في «شروحانا ». وبعد ست سنوات ظل الحرب فيها سجالا قهرهم وطردهم بعيداً عن تخوم مصر . فعادت مصر الى استقلالها بعد احتلال دام ستة قرون متوالية

اما السوريون مواطنوهم ، وكانوا عشائر عديدة ، ففضلوا العبودية في مصر على الارتحال عن بلاد الفوها وتعلقوا بارضها كل هذه القرون الطويلة . فسمح لهم احمس ملك طيبه بالاقامة خوفاً من ان تبور الاطيان الواسعة التي كانت بيدهم .

قال العلامة مسبرو في كلامه على القبائل التي استوطنت مصر (١) « كان الفراغنة قديماً ، يملأون الفراغ الذي كانت تحدثه الحروب بين الوطنيين ، باحلال

---

(١) صفحة ٤١

الاسرى محلهم ... وقد زادت غزوة الرعاة عدد الاجانب في مصر زيادة عظيمة وهاجرت اسرة الملوك الرعاة بعد انتصار احمس عليها الى آسيا ولم يلحقها غير طبقة المحاربين اما معظم الجالية السورية فقد ابت اللحاق بهم وبقيت في مدن هوارو (آفاري) وتانيس وباقي المدن والمراكز الواقعة في الشمال الشرقي من الدلتا وخصوصاً في جوار بحيرة المنزله . ولكن هؤلاء السوريين لم ينسوا تقاليدهم الوطنية ومع خضوعهم للمصريين فقد حافظوا على شيء من الاستقلال ورفضوا دفع بعض الضرائب وكانوا يفاخرون المصريين بأنهم من غير نسل الفراعنة . وهذا ما حدا بحيرانهم على تلقيبهم بالاجانب . وقد توصل بعضهم في عهد السلالة الثامنة عشرة الى ارقى وظائف الحكومة والكهنوت » (١)

٥ — حروب الفراعنة مع السوريين

لما طرد ملوك طيبة الملوك الرعاة من أرض مصر ولحقوهم الى فلسطين ، فتحت عيونهم على خيرات سوريا وعرفوا مواطن الضعف في اهلها والطرق الموصلة اليها . ففكروا في اقتحامها وغنم ثروتها . وساعدهم على ذلك انقسام آل فلسطين الى عدة قبائل متنافرة كما قدمنا ، ورغبة سكان فينيقيا في التجارة والملاحة والصنائع والعلوم ونفورهم من الحروب التي لا فائدة منها ، والتي نتيجتها الخراب والاضطراب . فكان الفراعنة في كل مرة يدخلون سوريا تخضع لهم عشائر فلسطين ، وأكثرهم مزارعون آمنون ، ويفتح لهم الفينيقيون أبواب مدنهم ، مفضلين فقد شيء من حريتهم ودفع جزية معلومة على فقد راحتهم وخسارة تجارتهم الرابحة ، خصوصاً في القطر المصري ، فضلاً عن عدم طاقتهم المقاومة . ولم يلق الفراعنة مقاومة حقيقية الا في القسم الشمالي من سوريا المعروف عندهم بأسم زاهي ، أي من سكان جزيرة أرواد وممتلكاتها الساحلية ، ومن الحثيين أصحاب قادس وحلب . فقد كان هؤلاء شديدي المراس ، صعبي الانقياد ، مشغوفين بالخيل والمركبات ، ومعدات النزال . فكان المصريون

---

(١) راجع في تاريخ الملوك الرعاة ماسبرو صفحة ١٥٩ — ٢٠٩ والدبس ج ١ صفحة ٢٢٩ — ٢٥٣ . ثم كتابي شاباس والاب قيصر دي كارا وعنوانهما :

Chabas : les pasteurs d'Egypte, Amsterdam 1868

P. Cesare di Cara. Gli Hykoso o Ré d'Egitto. 1888.

معهم في حرب دائمة ، فيخضعونهم أو يصالحونهم ولكنهم حين يبتعدون عنهم يخلع هؤلاء نيرهم وينكثون عهودهم . ولم يهدأوا حتى عجزوا وشاخوا ثم تلاشوا . فقد خارت قواهم بعد حروبهم خمسة قرون مع المصريين ، ومناوءتهم للملوك الاشوريين قروناً أخرى . ولما جاء الفرس الى سوريا لم يجدوا لهم أثراً . فالفينيقيون اذا كانوا احكم رأياً وأبعد نظراً منهم . ولم يتوصل الفراعنة مع كل جهودهم ، كما قال العالم مسبرو (١) الى ضم سوريا الى املاكهم او الى حكمها رأساً بواسطة قوادهم . بل اكتفوا بأخذ الجزية من أهلها ، ووضع بعض قوات عسكرية في معاقلها . فظل السوريون أحراراً في داخليتهم يحارب بعضهم البعض ويتحالفون ويفضون بينهم كل المشاكل من دون ان يتدخل المصريون في شؤونهم . ولم يكن اخضاعهم بالأمر السهل . بل كانوا اذا أرغموا على الخضوع لا يلبثون ان يثوروا لأقل سبب . ولطالما نهب الفراعنة بلادهم وكسحوا معاقلهم وخربوا مدنهم ودكوا هياكلهم وقصورهم وعاقبوا اقيالهم وسبوا منهم قبائل باسرها الى ارض مصر ، فيعودون الى الثورة لأقل داع »

٦ — غزوات تتوتمس الثالث

واول غزوة المصريين لسوريا كانت في السنة الثالثة لملك توتمس الذي خلف «أحمس» طارد الملوك الرعاة. فقد طمع سكان سوريا في صغر سنه فمنعوا عنه الجزية. فلما شب خرج بعساكره اليهم وكان الملوك السوريون قد تحالفوا مع الكنعانيين ، والقوا قيادة جيشهم الى ملك قادس ، واقاموا معظم قوتهم في مجدّو بجانب جبل الكرمل . فانتصر عليهم توتمس واجتاز مرج ابن عامر وما يليه الى لبنان واعمال سوريا حتى بلغ الفرات . وعاد الى مصر ظافراً يجر وراءه الوفاً من الأسرى والرهائن . ثم زحف ثانياً في الربيع التالي فاتم اخضاع سوريا . وبعد اربع سنوات توصل ملك قادس الى لم شعث قومه ، فهب توتمس للتنكيل به وبمحالفيه وحاصر قادس واستولى عليها ودك حصونها . ولما ثارت ارواد عليه ثانية عاد فأذلها ورجع الى مصر ظافراً جالباً معه كرهائن ابناء الملوك السوريين واخواتهم . وكان اذا مات احد اقيال سوريا بعث باحد هؤلاء الرهائن ليحل محله فيضمن خضوعهم وجزيتهم . وفي السنة الثالثة

(١) صفحة ٢٢٨

والثلاثين من ملكه ، ذهب توتمس الى سوريا فحمل على الاشوريين والتقى في عودته بوفود من قبل شعب زاهي ولبنون (لبنان) وأسو (لبنان الشمالي) الذي كان مشهوراً بمعادنه ، فقدم له اللبنانيون الجزية . ولما لم يخلصوا له الطاعة اضطر في السنين التالية ان يبعث اليهم والى بعض مدن سوريا الشمالية بجيش تكفل باخلادهم الى السكينة . ولما عاد ملك قادس وحصّن مدينته وحمل غيره من ملوك سوريا على الخروج عن طاعة توتمس ، اضطر هذا في السنة الثانية والاربعين من ملكه ان يجيش الجيوش مرة أخرى للتنكيل بالحثيين وحلفائهم الروتانو . فتم له فتح قادس هذة المرة ايضاً ، وبدد شمل المتألبين عليه وعاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة براحة بال من جهتهم

٧ ـ حروب الرعمسيسيين

ولم نجد بعده أثراً لحروب المصريين مع الحثيين سوى في ايام توتمس الرابع الذي لم يوفق كثيراً . فقد ظهر بأس الحثيين وسطوتهم في دولة الرعمسيسيين التاسعة عشرة . وهي من اقوى واشهر دول مصر . ويقول العالم ماريتّ ان «هذه الدولة المصرية من سلالة الملوك الرعاة . لان رعمسيس الثاني جدد في تانيس عبادة سوتك اله الملوك الرعاة وكان يدعو « ستعابتي » اباً وجداً له . ولم يكتف بذلك بل جعل ارتقاء جده هذا الى سدة مصر الملكية مبدأ تاريخ يؤرخ به اعمال المملكة . وهذا يدل على ان سلالة الملوك الرعاة لم تنقطع تماماً من مصر بعد خروجهم منها »

وكانت دولة مصر قد ضعفت قبل قيام رعمسيس الاول . فاغتنم الحثيون هذه الفرصة وتغلبوا على الروتانو في شمال سوريا وازاحوهم عن مراكزهم ، واتحدوا في مملكة واحدة فسيحة الارجاء بسطت سلطتها تحت قيادة الملك «سابالت »من شاطىء الفرات حتى جبل طوروس والبحر المتوسط غرباً وقادس جنوباً . اما رعمسيس فبعد ان أتم اصلاح شؤون مملكته ، قصد فلسطين فاجتاحها وتابع مسيره حتى نهر العاصي حيث قابلته جيوش لم يكن يحسب لها حساباً . فاضطر ان يعقد مع ملك الحثيين صلحاً ومعاهدة دفاعية وهجومية . مع ان ملوك مصر لم يكونوا يعتبرون ملوك الحثيين مساوين لهم في القوة

ولم يكن شاتي الاول ابنه بأوفر حظاً مع السوريين . لانه بعد ان تغلب على عرب خليج السويس الذين كانوا يقلقونه ، زحف بعساكر جرارة الى فلسطين

حيث لم يلق مقاومة . واستسلم له الفينيقيون ايضاً كعادتهم وقدموا الجزية له والذخائر والمؤن لجنوده. لكن الحرب استعرت بشدة امام قادس . ولما سقطت لم يسلم الحثيون، بل ظلوا يدافعون عن وطنهم قدماً قدماً حتى اعيوا المصريين . فاضطر هؤلاء ان يعقدوا مع ملك السوريين « موتنار » الشهير صلحاً موقتاً ردوا فيه اليهم عاصمتهم قادس ، ولم يشترطوا عليهم غير الكف عن مهاجمة مصر واعمالها والدفاع عنها اذا هوجمت . واصبحت سلطة مصر مقتصرة في سوريا على فلسطين وما جاورها ، وعلى بلاد آرام الجنوبية وعلى فونيقي

ولم يقهر الحثيين الا رعمسيس الثاني الذي يسميه اليونانيون سيزوستريس . وكان الحثيون قد جمعوا شملهم وائتمروا بامر ملك قادس موتنار المذكور ، وتحالفوا مع الفلسطينيين على مصر وانجدوهم ببعض قواتهم وحملوهم على العصيان . فحمل رعمسيس الثاني على فلسطين مرتين بلغ في احداهما الى بيروت ، حيث ترك صورته منقوشة على صخر عند مصب نهر الليكوس (نهر الكلب) وهي محفوظة الى الآن ، وانضم أهل حلب وكركميش والجرجاشيون والاراميون والاروادیون الى الملك موتنار ولم يبق منهم ممالئاً لفرعون غير اهل صيدا وجبيل . وكان موتنار مدرباً في امور الحرب ففضل مخادعة رعمسيس وأرسل اليه اعرابيين اوهماه انه بعيد ومختبيء في حلب ، وان سكان قادس خاضعين لامر فرعون . فاغتر رعمسيس بهذا الكلام واسرع الى قادس بقوة صغيرة، حتى اذا اقترب منها هاجمه الحثيون بشدة وشطروا جيشه وكادوا يقبضون عليه حياً لولا بسالته الشخصية. ولما كان قد علم بالخديعة من اسيرين عندهما أرسل يطلب النجدات . فوصلت اليه صباح اليوم التالي، حتى اذا استجمع قواه هاجم بها اعداءه ببسالة نادرة ، فصدمهم بعد معركة هائلة دارت فيها الدوائر على الحثيين . فأرغمهم على عقد صلح نقضوه في السنة الحادية عشرة للملك ، واخرجوا اكثر اعمال فلسطين من يده وكادوا يحصرون المصريين في واديهم لولا همة رعمسيس الذي تمكن بعد جهاد طويل من ازاحة المتحالفين عن فلسطين ثم عن فينيقي وسوريا المجوّفة . وبعد أن تم له ذلك توغل في وادي العاصي حتى وسط بلاد اعدائه . ولم يتنفس رعمسيس الصُعَداء الا بعد حرب دامت خمس عشرة سنة قُتل في آخرها غيلةً موتنار رئيس المحالفة السورية .

٨ ـ الصلح والاخاء

وسئمت الدولتان الحروب فعزمتا على عقد صلح نهائي دائم . ووقعتا على عهدة كتب نصها اولاً باللغة الحثية على صحيفة من فضة . ثم نقشت على جدار هيكل الكرنك يقول فيها « كيتاسار ملك الحثيين العظيم . اتعهد ان يكون ابتداء من هذا النهار سلام واخاء مؤبدان بين بلادي وبلاد مصر وبين رعاياي ورعاياهم ، فلا تنشأ بعد اليوم عداوة بيننا البتة، بل يكون ملك مصر العظيم اخاً لي ، واكون انا اخاً له ، منضماً اليه كأن لنا قلباً واحداً » ومن شروط المحالفة معاهدة دفاعية هجومية بين البلادين ، واتفاق على تسليم المجرمين « واعادة المهاجرين من الصنّاع بدون اذية » وقد حافظ الطرفان هذه المرة على هذه المعاهدة قرناً كاملاً . فكانت سوريا من جبيل الى الجنوب تخص المصريين ، ومنها الى الشمال تخص الحثيين .

وقد وطد الاتفاق وثاق الاتفاق بالمصاهرة ، فتزوج رعمسيس من ابنة كيتاسار ، ثم دعا حماه الى زيارته فلبى دعوته ، ولاقاه رعمسيس في مدينة جاسان (حيث كان بنو اسرائيل) واستصحبه إلى طيبة ، حيث ترى إلى الآن صورة رعمسيس الثاني منقوشة بقرب صورة امرأته وحميه .

وقد كان لهذه الملكة السورية تأثير يذكر في ديانة المصريين ولغتهم وعاداتهم كما سيأتي القول(١)

***

فانت ترى مما سبق ان العلاقات الجنسية والسياسية بين الشعبين المصري والسوري كانت متينة ودائمة ، وابتدأت منذ نشأة تاريخهما .

ومما لا ريب فيه ان تردد السوريين إلى مصر وطد عنصرهم بكثرة في وادي النيل خصوصاً في الدلتا القريبة منهم

قال الاستاذ ليوت سميث (٢) « ان المحفوظ من تاريخ مصر القديم يدل على ان

---

(١) راجع في حروب الفراعنة مع الحثيين مسبرو صفحة ١٥٩ — ٢٠٩ والدبس ج ٢ صفحة ٢٢٩ — ٢٥٤

(٢) راجع مقالته المنشورة في جريدة الشعب (نيويرك) بتاريخ ٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٤

المصريين كانوا يرسلون البعثات إلى سوريا في طلب الخشب والقلفونه من أيام الدولة الثالثة أي قبل امنحتب الثالث بالف سنة . ثم ان الهياكل البشرية الموجودة في مدافن مصرية تدل على أن السوريين كانوا يفدون على مصر زرافات قبل ذلك التاريخ بثلاثة قرون أو اربعة »

وقد مر بك ان مئة قبيلة منهم استقرت وراء الشلال الثاني، وان عدداً غفيراً منهم لايقل عن الربع مليوناً ، استوطن منذ خمسة آلاف سنة الدلتا من شواطىء البحر المتوسط حتى الفيوم . فمن الضروري انه نما وتكاثر حتى بلغ الملايين . فضلاً عن العشائر والقبائل السورية التي ساعدها مواطنوها الملوك الرعاة مدة الستمائة سنة التي حكموا فيها مصر على احتلال هذا الوادي ، حيث اقطعوها احسن الاطيان وعززوها بكل مالديهم من الوسائل، مدفوعين إلى ذلك بعامل الوطنية وبرغبة تقوية عنصرهم في بلاد غريبة عنهم . وقد اصبح هؤلاء السوريون معدودين كوطنيين

قال مسبرو مؤرخ مصر الشهير (١) « لما جاء العبرانيون والسوريون الاولون في بدء مملكة الرعاة وجدوا مواطنيهم الذين سبقوهم إلى وادي النيل قد تمصّروا حتى كادوا لايفرقونهم عن الوطنيين القدماء » فكيف بهم بعد أن قضوا في مصر ستمائة سنة

وقد رأيت ان احمس الذي طرد الملوك الرعاة سمح للعشائر السورية بالبقاء في مصر طمعاً بالفائدة التي تعود على البلاد من حراثتها الارض. وقد كان افرادها من أمهر المزارعين (٢) فهل يعقل أن يعمد ملوك مصر بعده إلى إخلاء الدلتا من ملايين الفلاحين السوريين الذين كانوا يعملون فيها ؟

اضف إلى ذلك العدد الوفير من الاسرى السوريين الذين كان ملوك مصر يجلبونهم إلى وادي النيل بعد غزواتهم كما رأيت، عدا الذين كانوا يؤمونها من الفونيقيين للتجارة . فاذا كان العنصر السوري قد وُجد بهذه الكثرة في وادي النيل منذ خمسة الآف سنة ، فاين نحن وقول بعض المتأخرين ان السوريين دخلاء في مصر

---

(١) صفحة ٢٠١ (٢) الدبس صفحة ٢٥٢

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية والدينية والعلمية بين مصر وسوريا في عهد الفراعنة

١ً — قيام الفينيقيين بأسطول مصر

لم تكن غزوات الفراعنة لسوريا لمجرد التبسط والفخار . بل لاسباب اقتصادية حيوية في الدرجة الأولى من الاهمية. فقد كان الفينيقيون مالكين البحار وقابضين على التجارة في كل الامصار . وندر ان كان للمصريين عمارة بحرية فكانوا يحتاجون الى اسطول جيرانهم لنقل عساكرهم وتصريف حاصلاتهم وصناعاتهم والظفر بالمواد الاولية المعدومة في بلادهم وبمنتوجات الصناعة الاجنبية والكماليات. وكان المصريون يكلفون الفينيقيين واليونانيين في بعض الاحيان انشاء اسطول مصري خاص بهم لكنهم كانوا مضطرين الى تسليم قيادته الى الملاحين الفينيقيين لعدم خبرتهم بهذا الفن ولكرههم له

قال العالم لانرمان (١) لم يكن المصريون يحسنون الملاحة بل كانوا مهملين لها كالاشوريين والفرس . وكانوا يكرهون البحر ويعتبرونه نجساً يسكنه اله السوء. فاذا ركب المصري البحر في سفينة خيل اليه انه على ظهر عدو يهدده ويلصق به نجاسة دينية . فتشبثهم بهذه المعتقدات الباطلة حرمهم ان يكونوا من رجال البحار . ولم يكن للاشوريين عند استفحال أمرهم اسطول بحري في بحر الروم الاسفن كيليكيا وفونيقي . ولم يكن للفرس من السفن الا ما ركبه اليونان والفينيقيون والكيليكيون فبالاحرى لم يكن لفراعنة مصر من السفن الا ما أنشأه الفينيقيون والصيدونيون . وقد تبين من الآثار والتواريخ المصرية انه كان لمصر في عهد توتمس الثالث أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة اسطول يجبي له الجزية من الامصار الشاسعة . وما تلك الامصار الا البلاد التي كان الصيدونيون يمارسون التجارة فيها او كان لهم فيها جالية

(١) مجلد ٦ صفحة ٤٩١ انظر ترجمة كلامه في تاريخ سوريا للدبس صفحة ٢٧٩

كقبرس وكريت وجزائر الارخبيل وشطوط افريقيا الشمالية وغيرها . ولما كان جنود الفراعنة في البحر المتوسط فونيقيين فلا يبعد ان يكون كذلك جنودهم في البحر الاحمر . وعليه فقد كان الصيدونيون ينقلون العساكر المصرية الى بلاد العرب الجنوبية لتدويخها او لرد اهلها الى الطاعة ، وهم الذين كانوا يقودون السفن التي تنقل الى مصر حاصلات الهند وبلاد العرب من معادن وأحجار وأخشاب ثمينة وعاج وغيره . وكانت الاسفار في البحر الاحمر محفوفة بالاخطار تتطلب ملاحين ماهرين. حتى ان الدولة السادسة والعشرين لما ارادت ان تسير سفناً ، اضطرت ان تلتجىء الى الفونيقيين. ونرى من جهة أخرى الكتاب المقدس ينبئنا ان السفن التي بناها سليمان في إيله بعد معاهدته مع حيرام ركبها ملاحون صوريون وسيروها الى اوفير لاستجلاب الذهب . ونجاح هذه السفن منذ اول اسفارها دليل على ان البحارة الصوريين كانت لهم خبرة سابقة في تلك البحار وسواحلها ورثوها من اسلافهم الصيدونيين »

ولم يكن الفونيقيون ليحجموا عن ركوب الاخطار في سبيل خدمة المصريين . وقد رأيت انهم قاموا تلبيةً لنيكاو ملك مصر برحلة من اشق وأطول ما عرف في التاريخ القديم ، اذ انهم داروا حول قارة افريقيا ليتحققوا هل هي محاطة بالبحار وهل سواحلها غنية بالذهب والعاج والعطور والاخشاب الثمينة . وقد اتموا هذه الدورة في ثلاث سنوات بمراكب صغيرة وجراءة كبيرة ومهارة نادرة (١)

٢ — تجارة الفينيقيين مع مصر

كانت حالة مصر الاقتصادية في ايام الفراعنة تشبه كثيراً حالتها الحاضرة . فكانت كل صادراتها من اقطان وحبوب وغير ذلك ، وكل وارداتها من مواد اولية وأقمشة وكماليات تنقل على بواخر الاجانب . وكان كل العملاء (الكومسيونجية) الذين يتولون تصريف حاصلاتها وجلب حاجاتها من غير اهلها

لكن السوريين جيرانها واخوانها ، ولا سيما الذين كانوا اتخذوا وادي النيل

---

(١) راجع ما قلناه سابقا في هذا الصدد في الفصل الاول وما جاء في ماسبيرو صفحة ٦٢٧ وفي الديس صفحة ٢٩٠ نقلا عن المؤرخ هيرودوت

وطناً ثانياً لهم كفوها في القديم سيطرة الاجانب الثقيلة ، واجتهدوا في كل العصور ، في أيام الفراعنة والمماليك والاسرة المالكة الحالية ، ان يخدموها بأمانة وصداقة ويخففوا عنها جشع الاجانب واستبدادهم كما سنبرهن على ذلك في سياق هذا التاريخ

قال العالم ماسبرو « كان الفينيقيون عملاء للاجانب في مصر وعملاء لمصر في الخارج وقد ضحوا في سبيل اكتسابهم لصداقة ومعاملة المصريين بشيء من حريتهم فكانوا اذا داهمهم الفراعنة بجيوشهم لا يقفون في وجوههم بل يفتحون لهم أبواب مدنهم واهرائهم وخزائنهم . فيضيفونهم ويرشدونهم ويقدمون المؤن لعساكرهم ويفرضون الجزية على انفسهم . حاسبين ان هذه الغرامة الاختيارية لا تذكر في جانب الصداقة والراحة والامان . فالتجارة شجرة لا تزهر ولا تثمر الا في جو السلام . فأوصلتهم خطتهم هذه الحكيمة الى أعلى درجات النشاط التجاري والثروة (١) »

« وكان للفينيقيين في مصر وخصوصاً في مدن الدلتا الكبيرة ، مثل تانيس وبوبست ومندس وساليس ورعمسيس أناخويتو ، مستودعات عظيمة خاضعة لتفتيش السلطة المصرية . وقد اتسعت المخازن التي أقاموها في ممفيس في حي انحتوي اتساعاً عظيماً حتى أصبحت كأنها مدينة قائمة بنفسها . وأظهرت الاكتشافات التي أجريت أخيراً في هذا الحي عدداً من المسلات الارامية يرجع الى العهد الفارسي (٢) »

وفي المعاهدة التي امضيت بين رعمسيس الثاني ملك مصر وكيتاسار ملك الحثيين ذكرت بنود خصوصية لحماية تجارة وصناعات الدولتين المتحالفتين (٣) فالحثيون الذين طالما ناوأوا المصريين انضموا من ذلك العهد الى جيرانهم الفينيقيين في معاطاة التجارة مع القطر المصري . فأصبح السوريون بأكملهم من سكان الشمال والجنوب عملاء المصريين وأصدقاءهم

وكانت طرق المواصلات بين الفينيقيين والمصريين كما هي الآن على نوعين : بحرية وبرية . فالطرق البحرية كانت بطبيعة الحال تسير على سواحل زاهي (شمال

---

(١) ماسبرو ص ٢٥٧ و ٢٧٨ والدبس ٢٧٦ و ٢٨١ (٢) ماسبرو ٢٨١ راجع ايضاً بروجش Brugsch; Zeitschrift für aegyptische sprache p. 9

(٣) ماسبرو ص ٢٦٧

سوريا) ثم الى فينيقية وفلسطين حتى تانيس. وكان الفينيقيون يمارسون ايضاً التجارة بين الهند وبلاد العرب ومصر بواسطة البحر الاحمر كما تقدم القول.

اما طريق البر فكانت تجتازها القوافل الفينيقية من مصر الى رفح وغزة وعسقلون وخربة يزنا والخيمة مخترقة مضيق جبل الكرمل (١) وكما ان كل طرق البحار كانت تبتدىء بفينيقية وتنتهي اليها كانت قوافلهم تجوب كل طرق البر المعروفة في تلك العصور. فكأن الفينيقيين بتجارتهم مع مصر واهتمامهم بأسطولها كانوا رابطة الاتصال بينها وبين العالم كله. ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد السياسية والاقتصادية لمملكة الفراعنة

ولنبحث الآن في اصناف هذه التجارة من صادرات وواردات

٣ — صادرات مصر الى فينيقيا

اكبر خدمة قدمها الفينيقون لمصر كانت بنقل عساكرها بحراً الى البلاد لتدويخها او اعادة اخضاعها وجبي الجزية منها. وكانوا يقدمون السفن اللازمة لها كاملة ويتولون صنعها وملاحتها لحسابها

وأهم الصادرات التي كانوا يشترونها من مصر او يقايضون بها كانت الغلة والخيوط وأقمشة البز وعربات الحرب والخيول

اما غلة مصر فكانوا يحملونها الى الغرب وكانت الخيوط التي تفتل في مصر ادق وأمتن الخيوط التي كانت تصنع في الازمنة القديمة فكانت مرغوبة عند حياكي وصباغي بابل

وكان لتجارة العربات الخفيفة المتينة المصنوعة في مصر رواجاً عظيماً لشيوع استعمالها في حروب ذلك العصر

اما الخيول فقد جاء الملوك الرعاة السوريون بأجود نسلها الى وادي النيل، فتعودت مناخه ونمت فيه بفضل اعتنائهم بها وشغف الامراء والوجهاء بها، وأصبحت اسطبلات مصر من الشهرة والكثرة بمكان. فكان الفينيقيون يبتاعونها لانفسهم ولباقي البلدان التي كانت تعاملهم (٢)

اما تجارة الاقمشة المصرية فكان البز اهمها. وهو كتان مزركش كان المصريون

(١) ماسبرو ٢٢٦ (٢) ماسبرو ٣٩٢

يجيدون صنعه . وهو ما نراه باقياً على رغم الدهور اكفاناً للجثث المحنطة . وكان الفينيقيون يستعملونه شراعاً لسفنهم ويبتاعونه بكميات عظيمة نظراً لاتساع ملاحتهم وقد ذكره النبي حزقيال في تعداد واردات صور (١)

٤ — واردات مصر

ولكن واردات مصر كانت تفوق صادراتها. وأخص هذه الواردات الاخشاب ومصنوعات الفينيقيين

اولاً الاخشاب

يقول الخواجه مونته مكتشف آثار جبيل في محاضرة القاها عن علاقات جبيل مع مصر (٢)

« ازدهرت في جبيل مدنية ممتازة تضاهي المدنية المصرية والكلدانية. وينبيء ما اكتشف الى الآن ان تاريخ جبيل القديم له علاقة بتاريخ مصر وأن المبادلات الاقتصادية كانت تربط هذا القطر بتلك المدينة. لان فراعنة مصر كانوا يستوردون من جبيل وجوارها ما كانت ارضهم عاجزة عن تقديمه من الاخشاب المختلفة والمواد الضرورية لهم . من ذلك خشب الصنوبر والخرنوب والارز والجوز والسنديان. وقد جرد الفراعنة الحملات على سوريا منذ اربعة آلاف سنة قبل المسيح للوصول الى ما يلزمهم من هذه الاصناف ، لانهم كانوا يستخدمون هذا النوع من الخشب لصنع الفلك المقدسة وتوابيت الكهنة ولاقامة سوار امام الهياكل تخفق عليها رايات الملوك من اليوم الذي استطاعوا الاستغناء فيه عن خشب الاقاقية »

« ثم ان فراعنة مصر كانوا يحتاجون الى سفن كبيرة صلبة تمكنهم من اقتحام اخطار البحور لاستجلاب ما ينقصهم وخصوصاً ما كانوا يخصصونه لهياكلهم وعبادة آلهتهم فكان لا بد لسفنهم من الوصول الى باب المندب لابتياع البخور الذي لا يوجد الا في تلك الجهة . وكانوا يقصدون الى سوريا لاستيراد الخشب وابتياع السفن المتينة التي كان اهل جبيل قد امتازوا بصنعها . وقد ذكر الكتاب المقدس ان بيبلوس (جبيل) تقدمت على سواها في هذا الامر »

---

(١) فصل ٢٧ عدد ٧ . راجع الدبس ص ٣٣٨ وراجع الهلال سنة ٢ صفحة ٣٥٥

(٢) تجد ملخصها مترجماً في جريدة الاهرام الصادرة في ١٣ يناير سنة ١٩٢٤ تحت عنوان « بين مصر ولبنان »

«ويظهر مما نعرفه ان حياة مصر الاقتصادية كانت تتأثر تأثراً عظيماً من علائقها بمدينة جبيل . وقد عنيت مصر من اول تاريخها بعلائقها مع جارتها فينيقية وخصوصاً جبيل . وترجع الحملات الى عهد السلالة المصرية الثانية. ويتضح من كتابة وجدت منقوشة على مسلة محفوظة في مدينة تورينو (ايطاليا) ان الملك سنفرو من السلالة الرابعة توجه الى جبيل واخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر يبلغ طول الواحدة منهما مئة ذراع »

ثانياً مصنوعات الفينيقيين

كان الحثيون والفينيقيون اجداد السوريين من امهر صناع العالم . فقد اشتهر الحثيون في اشغال النحت واتقان الهندسة خصوصاً في التحصين، عدا خبرتهم الشهيرة في استخراج المعادن وتحويل الحديد الى فولاذ. وقد وجدت لهم اختام من حجارة كريمة بديعة الصنع تمتاز عن مصنوعات سائر الامم برسم ثلاث دوائر تتخللها رموز صور مدهشة . ورأى اكثر العلماء وفي مقدمهم الاب دي كارا انهم لم يأخذوا صناعة التحصين وغيرها عن المصريين . بل ربما اكسبوهم اموراً مهمة في هذا الفن خصوصاً على عهد الملوك الرعاة الحثيين اصلاً . وقد اخذ اليونان ايضاً عنهم هذا الفن

ولم يقل الفينيقيون عن الحثيين مهارة في هندسة الابنية وتحصين المعاقل. وكانوا اول من اعتنى بتبليط الازقة والشوارع في المدن . وقد اجمع علماء التاريخ انه اذا كان الفينيقيون قد اخذوا شيئاً من صناعتهم عن المصريين والكلدان والاشوريين، فقد كان له نمط خاص بهم قائم بنفسه ادركوا به قصب السبق ولا سيما في المصنوعات الدقيقة الصغيرة (١)

واكثر الاصناف التي كان الفينيقيون يتاجرون بها كانت من صنع ايديهم واهمها الارجوان والزجاج والخزف والصفر والعاج والمقدّدات

فقد اخترعوا صبغ الارجوان من مواد استخرجوها من حيوانات بحرية ذات اصداف كانوا يصيدونها في خلجان صور وصيدا وكانوا يبيعونها باثمان عالية للملوك وسراة ذلك العصر. وكانوا يصبغون بهذه المادة اجود النسيج من صوف وحرير وخصوصاً انسجة الصوف الناعم التي كانوا يستجلبونها من برية سوريا (٢)

(١) راجع الدبس عن صناعة الحثيين ٢٠٤ و ٢٠٥ وعن الفينيقيين ٣٤٢ — ٣٧٥
(٢) الدبس ٣٤٣

وكان المصريون قد توصلوا الى عمل الزجاج غير الشفاف بواسطة محلول البوتاس. فاختار الفينيقيون لصنعه ملح النترون يمزجونه مع رمل نقي خالص وجدوه على ضفتي نهر بالوس (النعمان) فوصلوا الى زجاج شفاف جميل ترى منه في اكثر متاحف اوربا نماذج تشهد لهم بمهارة عجيبة . (١)

اما أواني الخزف كالجرار والقدور والكؤوس والصحاف فكانوا يصدّرونها بكميات عظيمة الى البلدان المتأخرة في المدنية . وكانوا يتوخون فيها المتانة فلم يتقنوها ويزخرفوها كاليونان الذين اخذوا هذه الصناعة عن الفينيقيين (٢)

وقد حازوا قصب السبق في صنع الصفر اي النحاس الاصفر . وحسبك ماذكره الكتاب المقدس عن آنية وأثاث الزينة المدهشة التي صنعوها لهيكل سليمان . وكثيراً ماجاء في الخطوط الهيروكليفية على عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصر ذكر آنية الصفر من صنع الفينيقيين مع وصفها بالظرف وبديع الصناعة. وكانت هذه الآواني تقدم الى الفراعنة من جملة اصناف الجزية

وقد ذكر النبي حزقيال مهارة الصوريين في صنع العاج الذي كانوا يزخرفون به المساكن والمتاع باشكال بديعة . وكانوا يستجلبون اسنان الافيال من الهند بواسطة قوافلهم ومن شمال افريقيا بواسطة مراكبهم .

وقد أجادوا أيضاً استثمار القليل من الارض الموجودة بين البحر والجبل . فقد توفرت في جوانب صوروصيدا وبيروت وجبيل كروم العنب وكانوا يعصرون منها خمراً طارت شهرتها . ويقول رنان (٣) : قدوجدت في ضواحي صور آلات للحراثة اكمل وامتن مما في ايامنا » وقد كانوا يحملون الى مصر الخمر والطيوب والزيوت . ولعل السبب في حمل الخمر والطيوب اليها أن المصريين اضطروا الى استجلابه منهم بكميات كبيرة لكثرة هيا كلهم وما يستلزمه ذلك من كثرة الذبائح وسكب الخمور (٤)

وكانت صناعة تقديد الاسماك اللذيذة المستخرجة من مصايدهم في صور وبيروت من اروج بضائعهم ، وانفعها لهم في الاسفار الطويلة التي كانوا يتجشمونها في البحار والامصار (٥)

---

(١) الدبس ٣٤٤ (٢) الدبس ٣٤٥

(٣) البعثة الفينيقية صفحة ٦٣٣ (٤) راجع الهلال ٢ : ٣٥٧ (٥) لاتزال الاسماك التي تصاد في شواطىء لبنان من اذ ماعرف في العالم لجودة وغزارة المرعى الموجود على صخور سواحله

ثالثاً المعادن

يقول الخواجا مونته في محاضرته عن علاقات جبيل ومصر المذكورة سابقاً « كان المصريون يحتاجون أيضاً الى القطران والقير . فالاول لحفظ المومياات ، والثاني لتحنيط الاجساد . وكانوا يعتقدون أن القير يجعل الاجساد الهية غير قابلة الفساد . ولذا كانوا يطلون به دمى الملوك انفسهم كما ترى في تمثالي توت انخ امون المنصوبين على قبره . وهكذا طلوا بالقير والطيوب الثمينة تمثال اوزيريس . وقد علمنا من النصوص أن القير كان يؤخذ من جبيل وكان يأتيها من جبال ما بين النهرين »

اما معادن الذهب والفضة والقصدير والحديد فكانت معدومة في ارض مصر لانبساطها . ولم يكن لها غنى عنها في صناعاتها خصوصاً لعمل الاسلحة لجيوشها . فكان الفينيقيون يجوبون الاقطار بمراكبهم وقوافلهم كما مر بك القول ويمدون الفراعنة بكل ما يحتاجونه من المعادن . والحرب مستحيلة من غير اسلحة . فاذا أضفنا خدمتهم هذه الى نقلهم جيوش مصر باسطولهم وتصريف حاصلاتها ، تحققنا ان اجداد السوريين كانوا من اكبر اسباب رخاء مصر واتساع سلطتها في العصور القديمة

٥ ـ العلاقات الدينية

قال مونته في محاضرته المذكورة اعلاه « وقد حفظ المؤرخ لوقيان رواية تقليدية يرجح من مطالعتها ان أسرار ادونيس ليست مختلفة عن أسرار أوزيريس . وقد وجدت في أساسات الهيكل المشيد « لربة جبيل » أشياء يرجع تاريخها الى السلالات المصرية الثلاث الاولى . لان اسماء مكيارينوس (باني أحد الاهرامات الكبيرة) وبابي الاول وبابي الثاني ذكرت على الاواني التي ظهرت في هذه الحفريات . ومنها هدايا أرسلها الفراعنة الى ملوك جبيل.(١) »

« ثم ان المصريين بنوا هيكلاً لالهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي اكتشفت . وهيئة النقوش والتماثيل ، وان كانت مشوهة ، تدل دلالة صريحة على ان عهد هذا البناء يرتقي الى السلالة الرابعة بل الى زمن اسبق . ومن ذلك يظهر ان المصريين لم يسعوا الى اكراه البلاد التي كانوا يخضعونها على انتحال ديانتهم

(١) راجع أيضا في مجلة الكليه مج ١٠ ص ١٤٩ خطاب الاستاذ هارولد نلسن في جبيل وحفرياتها

« وقد ظهرت كتابة محفورة على احد الاواني المقدمة الى الهيكل المذكور جاء فيها ماتعريبه : «من اوناس المحبوب من الاله الشمس الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انه محبوب من الاله المحلي إله جبيل . وأوناس يدعي انه محبوب من هذا الاله المحلي كما هو محبوب من الشمس الهة مصر العليا التي يمثلها هو . ويتضح من ذلك انه صاحب السيادة على جبيل كما انه سلطان مصر »

«اما ديانة هؤلاء الفينيقيين فما نعرفه عنها انما هو ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل . فما هو اذاً مصدر هذه الديانة واشراك ادونيس مع عشتروت فيها ؟ هل اتتهم هذه الخرافة من مصر ام اخذتها مصر عن الفينيقيين ؟ ان الملف الذي وجد في مفتتح كان لا شك ملك أحد ملوك جبيل وفيه تقرأ اسماء آلهة نيغا . وقد عثر في جبيل على رسم محفور يمثل اله والهة البلاد اللذين يعبدهما فرعون . والنصوص التي وجدت على الاهرام تنبئنا عن الهة نيغا . ويستدل بهذه كلها ان في فونيقية كان يعبد اله والهة يظهر ان لهما علاقة بأدونيس وعشتروت ، وقصتهما تشبه قصة أوزيريس وايزيس كما أكد بلوتارك . فهل نستطيع ان نقابل ما يؤكده هذا المؤلف بأقاصيص الديانات في جبيل ونقول ان بينها علاقة ؟ لا ريب في ذلك اذا تذكرنا « قصة الاخوين » فان بطل الرواية « باتاء » وهو يشبه كل الشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهيم ويموت فيبعثه اخوه ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر . »

« وعليه نختصر كل هذا بقولنا : ان مصر لما لم يكن لها غنى عن محصولات فينيقية وأهمها الارز والصنوبر والسنديان والقطران والقير ، أوجدت علاقات بينها وبين فينيقية ، وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى ارضهم »

وكان عند الفينيقيين نوع من الثالوث مؤلف من ملكرت الاله السامي وبعل وعشتروت كما كان في مصر ثالوث لكل مدينة كبيرة مؤلف من أب وابن وزوجة.(١) وكانت البقرة عندهم وعند المصريين لا تصلح للضحية كما قال برفير . ولم يكن لهم في القديم هياكل بل كانوا يعبدون آلهتهم على المشارف. ثم بنوا هياكل مسقوفة بأحجار

(١) راجع لازمان مجلد ٣ صفحة ١٧٤ و٢٠٨

كبيرة اذ لم يكونوا يعرفون العقد. وأخيراً اتبعوا هندسة الهياكل المصرية في معابدهم. وكانوا يعتقدون كالمصريين بخلود الميت فيدرجون جثته بلفائف ويغطون وجهه بغشاء رقيق من الذهب. ولم يكونوا يضعون في مدافنهم ما كل بل تماثيل آلهة بيتية بلغ بعضها حد الاعجاز في الصناعة (١)

وقد أدخل الملوك الرعاة والسوريون الذين لم يرحلوا معهم عدداً من معبوداتهم الى مصر، كالاله سوتكو اله الحرب أو شات المصريين وباعال وباعال زيفون وعشتروت ومرنا وانات وقدشو. وكان لها هياكل في ممفيس. وقد توصل السوريون في مصر بعد خروج الرعاة الى أعلى درجات الكهنوت. (٢)

وتمكنت عبادة الاله شات من نفوس المصريين وأصبح عندهم أعظم الآلهة. وقد مر بك أن دخول هذه العبادة الى وادي النيل كان على يد الملوك الرعاة، وأن بابي بنى له ازاء قصره هيكلاً عظيماً ورتب له الاعياد والتقدمات والضحايا. وكان يعبده هو وحاشيته. واجتهد في تفضيله على رع امون اله المصريين وأجبر هؤلاء على ذلك (٣)

ولما تعاهد المصريون والحثيون بعد حروبهم الاولى على السلام والاخاء، واتخذ رعمسيس الثاني ابنة كيتاسار ملك الحثيين زوجة له دخل الى مصر مع لغة وآداب الحثيين كثير من ديانتهم. فجدد رعمسيس للاله شات الهيكل العظيم الذي كان له في تانيس بعد أن لبث مهدماً في عصر الدولة الثامنة عشرة (٤)

وقد وجد العالم مريت في هيكل سمنه (تانيس القديمة) صفيحة نقش في أعلاها ثلاث صور: الاله شات وبيده الصولجان وعلى رأسه التاج. ثم رعمسيس الثاني قائماً امامه باسطاً يديه نحوه وفي كل منهما كأس خمر. ثم صورة من أقام هذه الصفيحة ساجداً. وهذا نص الخطوط الهيروكليفية عليها « في سنة اربعمائة أقام رعمسيس هذه الصفيحة اكراماً للاله شات واجلالاً لاسم ابي آبائه، وهو يحيى شات تحيات اله سام ويستمد منه التوفيق والاقبال في أيامه والثبات في ملكه ». ويقول الاب دي كارا: أن تاريخ الاربعمائة سنة المثبت في الصفيحة يراد به تاريخ اتخاذ شات

---

(١) الدبس ٣٦٨ (٢) ماسبرو ٤١٧ (٣) راجع الفصل الثاني من هذا التاريخ صفحة ١٨ (٤) الدبس صفحة ١٨٦

الها سامياً في مصر على سوية رع وأمنون ، وهذا التاريخ يوافق ايام ابابي احد ملوك الرعاة الذي عني بجعل شات او « شتخ » معبود الحثيين الهاً سامياً في مصر وقد تسمى بعض الفراعنة باسم شاتي او ساتي تبركاً (١)

وقد انتشرت هذه العبادة عند المصريين وأصبح شات عندهم اعظم الآلهة . وكانوا يقيمون له المعابد في المدن فيقولون ستخ طيبة وستخ ممفيس (٢)

٦ — العلاقات العلمية

اولاً الحروف الكتابية

اهم العلاقات العلمية بين المصريين والسوريين في عهد الفراعنة كانت في الحروف الكتابية واللغة الاصلية وفي تداخل اللغة الارامية في المصرية القديمة

اجمع العلماء على ان الفونيقيين اول من وضع الكتابة بالحروف وأن هذه الحروف اصل كل الكتابات القديمة والحديثة سواء كانت قبطية او عبرانية او ارامية او يونانية او لاتينية حتى الحروف الهندية والصينية

وقد صرح العالم شمبوليون مكتشف الكتابات الهيروكليفية ان الحروف الفينيقية مشتقة منها. وقد اثبت العالم دي روجه هذا الاشتقاق وبين كيفيته فقال: ان العلاقات السياسية والتجارية بين المصريين والسوريين كانت كثيرة متلاصقة . فكان الكاتب يضطر في كل وقت ان يرسم بالخطوط المصرية كلمات او اسماء اعلام مأخوذة عن اللغات السامية . فاضطرهم الامر الى ان يصطلحوا على روابط مقررة ، ليكون بين اللفظ السامي والمصري ما امكن من المشابهة . وقد كان بين اللغتين بعض تهجئات متشابهة ، وما لم يكن متشابهاً اصطلحوا على تأديته بالخطوط المصرية اصطلاحاً ثابتاً لا يتغير . » وقد تيسر لهذا العالم ان ينظم جدولاً وضع فيه الحروف الفونيقية بجانب الخطوط المصرية فظهر ان خمسة عشر حرفاً من الاثنين والعشرين التي تتركب منها الابجدية الفونيقية متشابهة وان السبعة الباقية لا تبعد عنها كثيراً . وأردف دي روجه قوله » بأن هذا الاختراع كان في عهد الملوك الرعاة في مصر . ونعم الاختراع الذي اعتيض به باثنتين وعشرين علامة بسيطة عن ألوف العلامات الهيروكليفية التي كان الكاتب يحتاج الى حفظها واتقان تصويرها . لأن اكثر العلامات المصرية

---

(١) الدبس ص ٢٣٥ (٢) الدبس ٢٠٦

صور طيور وحيوانات وهيئات بشرية . فجاد الفونيقيون بهذا الاختراع على العالم كله وزادوا فضلهم بنشر حروف كتابتهم في كل المعمور مع بضائع تجارتهم . وأول فائدة جنوها من ذلك تسهيل معاطاتهم التجارية مع هذه البلاد »

قال لانرمان (١) لا نعرف حروفاً للكتابة سبقت حروف الفونيقيين لكن الذي نعرفه ان كل ما بقي له أثر من الحروف وجميع الحروف المستعملة اليوم في كل اللغات قد صدرت تواً عن الحروف التي وضعها الفينيقيون أو تفرعت عن أحد فروعها. فالحروف الفونيقية أمّ ، وحروف سائر اللغات أولادها . وما عليك الا ان تقارن بينها وبين الحروف اليونانية واللاتينية والعربية والعبرانية والارامية أي السريانية لتحقق ذلك (٢) »

أما الكتابات الحثية فكانت على نمط الهيروكليفية مؤلفة من صور حيوانات وطيور وهيئات الانسان لكنها كانت تختلف عنها في الدلالة ، فلم يتوصل العلماء الى حل رموزها . وقد رأى العلماء مثل سائس وفيغورو وغيرهم ان الحثيين أوجدوا هذه الحروف ولم يأخذوها عن المصريين أو غيرهم . وكان من عاداتهم ان يكتبوها ناتئة لا محفورة فتطرق من الوراء على صفائح معدنية فتظهر الحروف في جهتها الاخرى كما ترى في الصفيحة الفضية التي كتبت عليها معاهدة الصلح والتحالف بين كيتاسار ورعمسيس المذكورة سابقاً . وقد اشتهرت هذ الكتابة في مستعمرات سورية القديمة في قبرس وآسيا وغيرها قبل ان تخلفها الحروف الفونيقية (٣)

ثانياً — اللغة

مر بك ان الحثيين والفونيقيين من اصل حامي كالمصريين لكن لغتهم سامية اخت العبرانية والعربية تعلموها من سكان سوريا القدماء بعد احتلالها . وقد اثبت العلماء ان الفونيقيين وباقي الكنعانيين سكان فلسطين ، وان كانت لغتهم سامية ، هم اقرب اصلاً

---

(١) مجلد ٦ صفحة ٥٥٣

(٢) راجع الجدولين المنشورين في تاريخ سوريا للدبس صفحة ٣٤٩ و ٣٥١ تجد فيهما مقارنة الحروف الفونيقية مع العلامات الهيروكليفية أولا ثم مع حروف باقي اللغات القديمة

(٣) راجع في هذا البحث ماسبرو ٨٤٢ — ٨٥٢ والدبس ٣٢٨ — ٣٥٢ ومجلة الهلال لسنتها الاولى صفحة ٤٩٢ و ٥٣٧

الى المصريين من الساميين . و بين الشعبين اشتراك في كثير من العقائد الدينية والخصال والسيمات الطبيعية (١)

قال غوستاف لوبون صاحب كتاب الحضارة المصرية (٢) «ان لغات سورية وبلاد الغرب وشمال افريقية تنقسم كأهاليها الى فرعين. الفرع السامي او السوري العربي والفرع الحامي او المصري المتبربر . و بين هذه اللغات جميعاً قرابة كالتي بين المتكلمين بها . واشتقاقاتها ولهجاتها المختلفة ترجع الى اصل واحد اولي ضاع اليوم . ولكن هذه اللغات لم تبتعد عنه كل البعد . وكل اصول اللغة المصرية ومعظم قاموسها القديم يتركب من عناصر ساميّة حتى اجروميتها في ما يتعلق بتركيب المؤنث والجمع . اما الكلمات البعيدة عن الاصل السامي فانها ترد الى ما تكلم به سود افريقية »

ثم ان المحالفة التي عقدت بين المصريين والسوريين وانتهت بزواج رعمسيس لابنة ملك الحثيين ادخلت في لغة المصريين الفاظاً وعبارات آرامية اي سريانية بل صار التكلم باللغة السريانية من مظاهر الرقي « والمودة » كما هي الآن حال اللغات الاوربية في الشرق . فكان المصريون يعلمونها ليس فقط لأبنائهم بل لعبيدهم . واستحسن علماؤهم ووجهاؤهم ان يرصعوا كلامهم بألفاظ وجمل سريانية. فلم يعد من حسن الذوق ان يحيّوا بعضهم بلفظة « آوُو » بل بكلمة « سلام » ولم تعد القيثارة تسمّى « بُونيط » بل « كِنّار » ولابد ان ملكتهم السورية وحاشيتها كان لها على لغتهم وتعابيرهم التأثير نفسه الذي رقى آدابهم وعاداتهم وغير بعض دياناتهم (٣)

وقد اكتشفت سنة ١٨٨٨ في تل العمارنة بالصعيد صناديق من خشب تحوي قطعاً من الاجرّ مكتوبة بحروف مسمارية بابلية (سريانية) . وهي عبارة عن سجلات الدولة المصرية في عهد امينوفيس الرابع وأبيه امينوفيس الثالث السابق عهده لموسى النبي . وهي مجموع رسائل وجهها الى فراعنة مصر أمراء آسيا وملوك بابل وأشور وولاة سوريا وفلسطين . ولذلك رأى بعضهم ان اللغة الآرامية كانت في تلك الازمنة

---

(١) راجع لارمان مجلد ١ صفحة ٢٧٥ والدبس ٣٥٣ و ٢٠٣ وهو ايضاً رأي رنان

(٢) راجع صفحة ٤٥ من ترجمته العربية بقلم . صادق رستم

(٣) راجع الدبس ١٨٦ ومسبرو ٤١٧

لغة الدول الشرقية الرسمية (١) . وقد ابقت لنا حرب جزيرة سينا المحاذية لمصر كتابات آرامية لاتحصى (٢)

ولما اسس البابليون والاشوريون مملكتهم العظيمة انتشرت لغتهم الآرامية في كل الاقطار ، حتى انه لما تغلب الفرس عليهم لم تفقد هذه اللغة شيئاً من أهميتها بل ظلت اللغة الرسمية في المملكة وفي كل مقاطعاتها العربية . لذلك نجدها على نقود آسيا الصغرى وعلى البردي والمسلات في مصر وفي التقارير والمراسلات بين الملك وحكام المقاطعات الخاضعة له (٣)

خاتمة

فما تقدم يتحقق قولنا ان مصر وسوريا لم تكونا في عهد الفراعنة وفي كل اطوار التاريخ الا شقيقتين متحابتين تتشابهان في الشكل واللغة وتتبادلان المنافع الاقتصادية والعقائد الدينية والآداب والمعارف، فتتكاملان مادياً وادبياً . وما تنافرتا يوماً الا عادتا فاصطلحتا دهراً وتعاهدتا على المودة والاخوّة والمعاضدة . وسجلتا العهد بالتصاهر فاصبح لكلتيهما «قلب واحد» . وكان تعاهدهما من اكبر دواعي نجاحهما وتسلطهما وتفوقهما بالثروة والصولة والآداب والعلوم على كل الشعوب القديمة. فاصبحت كل منهما منارة عالية ساطعة الانوار رائعة البهاء يستضيء بنورها كل بلدان العالم القديم التي كانت تعاملها .

وسنرى في ما يلي أن انحطاط شأنهما لم يكن عن خلاف جديد اضعفهما بل عن عوامل داخلية جعل الاشوريين والفرس واليونان والرومان ثم العرب والاتراك يتفقون عليهما حسداً وطمعاً . ومع ذلك لم تفرق الشدة بينهما بل قوّت رابطة المحبة والتعاون بينهما في كل الامور

---

(١) هذا كلام مسبرو ص ٧٧٦ . راجع في هذه المكتبة مقالة الاب لامنس اليسوعي في مجلة المشرق السنة الثالثة ص ٧٨٦ (٢) راجع المشرق سنة ١٩٠٣ ص ٧٠٥ — ٧٠٧

(٣) راجع مسبرو ٧٧٦ وكتاب كارمون هانو في اصل الآثار الآرامية بمصر المطبوع سنة ١٨٨٠ .

الفصل الرابع

علاقات مصر وسوريا في عهد الاشوريين والبطالسة والرومان

١ — الاشوريون

قد يطول بنا الكلام ويبعدنا عن الغاية الخصوصية التي نتوخّاها في هذا الكتاب اذا اردنا أن نفصل ولو باختصار علاقات القطرين السوري والمصري في عهد الدول الاشورية والفارسية واليونانية والرومانية ثم العربية والتركية . فلكي نصل ما قلناه عن الفينيقيين والحثيين اجداد السوريين بما نرغب ايضاحه من تاريخ الطوائف السورية في مصر وهي غايتنا الحقيقية من هذا الكتاب، نكتفي بالقاء نظرة سريعة على هذه المدة الطويلة والاقرب منا عهداً فنقول : ان تغلب هذه الامم على مصر وسوريا جعلهما مقاطعتين تابعتين لها فزاد ارتباطهما ببعض وتضامنهما على الغريب

نشأت الدولة الاشورية على انقاض دويلات مجاورة ضمتها اليها والتقفتها بسهولة . وقد قصدت أن تطحن مصر فكسّرتها لكن اقسامها بقيت كبيرة صلبة فلم تستطع ابتلاعها . وهكذا كان شأنها مع مملكتي التر في الشمال وعيلام في الجنوب الشرقي. اما سوريا فكانت منقسمة من نفسها بين اثنين وعشرين من اقيال متنافرين متفرقين كما هو شأن هذا الشعب في كل ازمنة التاريخ . فسهل على ملك اشور ابتلاعهم وما غص الا في لقمة صور التي دافعت عن نفسها دفاعاً مستميتاً حتى اعيت مهاجمها فتركها وشأنها . وبعد ان تغلب على جيرانها عاد اليها بأساطيلهم وحاصرها بحراً وبراً فملكها . وكانت نتيجة انتصار الاشوريين على كل هذه الشعوب انهم استنفدوا قواهم هم ايضاً . وكأنهم تعبوا لغيرهم. فجاء بعدهم الفرس ثم الماديون ورأوا هذه الدول قد تكسرت من تصادمها واصبحت لقمة سهلة فابتلعوها مع آكلها

وما يهمنا من أمر الاشوريين ان بروزهم في الميدان بهذه القوة جعل السوريين هذه المرة يتنبهون لانفسهم ويتحدون ويعقدون مع سكان فلسطين ووادي النيل محالفة دفاعية كانت مصر فيها، نظراً لمنعتها وقوتها، قائدتهم وأملهم الاكبر . ولا تنس

ماقلناه ان السوريين والمصريين اولاد عم . فعملوا هذه المرة بمثلهم القائل . انا واخي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب

منذ سنة ٧٢١ قبل المسيح بدأت تتألف في سوريا تحت اشراف مصر مؤامرة على الاشوريين ضمت كل الدويلات التي بقيت فيها على قيد الحياة . وكان في مقدمها يهوبيد ملك حماه الذي وصل الى نفوذ كبير بين جيرانه . فانضم اليه حكام ارواد ودمشق وفينيقيو سميرا مع بعض اليهود الذين لبثوا في السامرة ، ثم الصوريون الذين لم يتمكن منهم تجلت فلاصر . هؤلاء كلهم ايقنوا ان خلاصهم الوحيد من الاشوريين هو عن يد مصر جارتهم . ففاتحوا بوكوريس ملكها فأعارهم اذناً صاغية ليس طلباً للسؤدد والفخار وحفظاً لنفوذ اجداده القديم في الديار السورية فحسب ، بل أيضاً احتياطاً لنفسه من تعاظم قوة ملك اشور وامتداد طمعه الى مصر نفسها . فحالفته للسوريين وضعت بينه وبين ملوك اشور حواجز كان عليهم ان يجتازوها قبل الوصول الى وادي النيل . فكان الاشوريون في كل مرة يوطدون النفس على مهاجمة مصر ، يتعرض لهم حلفاؤها في سوريا ، فتخضد شوكتهم وتتفرق قوتهم ولا يعودون يقوون على مصادمة الجيش المصري المستريح المتحصن . لكن سارجون ملك اشور دهم المتحالفين السوريين قبل ان يتموا اهبتهم . فحاصر يهوبيد مقدامهم في كركر وكسره واسره وسلخ جلده حياً ، ما جعل سوريا المجوّفة تخاف بطشه فتخضع . ثم زحف الى فلسطين وحطم جيش حنون ملك غزة في رفيا . فذهب حلم سوريا بالاستقلال هباء منثوراً (١) . ولكن مصر شدت عزيمتها وتشجعت ولا سيما بعد ان رأت صور تقاوم الغازي سبع سنين متوالية وتكسر بسبع سفن اسطوله المؤلف من ثلاثين . فاسرع أسرحون ملك اشور الى الاجهاز على دويلات سوريا قبل ان تلتئم جراحها . وارسل ترقان قائده فأخضع فلسطين ويهوذا وآدوم ، وكاد يتابع سيره الى وادي النيل لو لم يفاجئه الشتاء . فخاف من الفشل اذا صادم قوة مصر المنيعة ببعض جيوشه ، لكن سنحاريب خليفته كان أكثر جرأة منه فاضمر الشر لسباقون ملك مصر وبدأ باخضاع سوريا وفلسطين ، فخالفه النجاح بالرغم من مساعدة مصر لهما . ففكر حينئذ سباقون ملك مصر ان يتغدّى سنحاريب قبل ان يتعشاه واجتاز بجيوشه خليج السويس وقابله في فلسطين . لكن السعد لم يخدمه

(١) ماسبرو ٤٨٧ — ٤٩١

هناك فاندحر وخسر معظم مركباته وعاد الى مصر بفلول عساكره مخذولا . وكان هذا الفشل مشجعاً لأسر حدون ملك نينوى الذى اصبح واثقاً بان الجيش المصرى مهما كانت شجاعته لا يقوى على النزال مع عساكر نينوى المدربة على احدث طرق القتال والتي قهرت الدول العظيمة المحيطة بمملكته

وكان طهراق الحبشي قد ضم مصر والحبشة تحت سلطته واستعد لمقابلة جيوش نينوى حتى اذا ما اقتربت من وادى النيل ردها على اعقابها مغلوبة . فاشتدت عزيمة السوريين وخابروا طهراق وحالفوه وكان في مقدمتهم بعلو ملك صور . وكان اسر حدون قد جمع قواه فامر الحكام الاشوريين بحصار صور براً وبحراً ومنع الماء والزاد عنها ففعلوا ، وسار هو بجيش جرار مجتازاً الصحراء حتى رفيا ، ومنها زحف الى مصر . ولما قابلته على حدودها مقدمة جيشها دحرها فاسرع طهراق الطريق بباقي قوته ونازله ، فلم يقو على مصادمته وفر الى الصعيد تاركاً لعدوه مفتوحاً الى ممفيس فدخلها ظافراً . لكنه لم يجسر على تملكها بل اكتفى باقامة حكام اشوريين على الدلتا وابدال اسماء بعض مدنها باسماء آرامية . ثم عاد الى بلاده على رأس الف من الأسرى المصريين ومقادير عظيمة من الغنائم ، وسهل عليه عندئذ اخضاع دويلات فلسطين وسوريا حتى ارواد ، لان سقوط مصر حليفتها وعضدها الاكبر فت في ساعدها فاستسلمت للغازى

(راجع ماسبرو ٤٨٧ — ٥٣٩ والدبس ٣٠٣ — ٣١٨ وتاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ص ٦٠)

٢ — الحضارة اليونانية

طغى سيل الاشوريين على الشرق القديم فجرف ممالك سوريا وفلسطين واجتاز الصحراء الى مصر فاغرق قسمها البحري ، ثم انحسر فجاء الماديون وركبت امواجهم سواحل الشرق . وما لبثوا ان لحقهم الفرس فقلبوا حكامهم وقلعوهم كما تقلع العاصفة الشديدة شجيرات لم تتأصل بعد في التربة. حتى اذا جاء اسكندر الاكبر كسح الجميع وقبض بيد من حديد على رؤوس العالم القديم . فاحتل مصر وبنى على شاطئها الشمالي مدينة الاسكندرية التي اصبحت بعد قليل بحضارتها اكبر منارة في الشرق .

احتل اليونان مصر بجيوشهم وعلومهم وفنونهم وعقائدهم فغيروا وجهها كما غيروا فيما سبق وجه المملكة الرومانية ووجه البسيطة كلها. وقد اتصلت حضارتهم بنا لقرب عهدها منا . وما زلنا نعهدها اساساً لرقينا . لكنك لو راجعت التاريخ لتحققت ان اليونانيين في كل ما عرفوه ليسوا الا تلامذة اجداد السوريين ، ولا يبعد ان يكون ذكاؤهم جذوة من هؤلاء . فقد مرّ بك ان الحثيين والفينيقيين استعمروا اكثر الجزر والسواحل اليونانية : كقبرص وكريت وجزائر الارخبيل وشواطىء آسيا الصغرى . وقد امتزجوا باهلها امتزاجاً جعل عنصرهم يتغلب على العنصر الاصلي ، ثم لقنوهم ما توصلوا اليه من العلوم والصناعات والعقائد الدينية . فاذا كان لليونان يد في نهضة مصر الادبية الوسطى فالفضل عائد الى اساتذتهم . وقد جاء في الانجيل : ليس التلميذ افضل من معلمه ولا العبد من سيده »

قال كورسيوس (في تاريخ اليونان مجلد ١ ص ٣٧و٣٨ راجع كلامهُ في ماسبرو ص ٢٩٥) مهما قلنا عن معاملة سكان سواحل آسيا الصغرى للفينيقيين فقد اخذ جميعهم بدون استثناء حضارتهم من هؤلاء المستعمرين الذين كانوا ارقى منهم ، ومنهم اكتسبوا الفنون والصنائع وتعلموا الملاحة . واذا كانوا لم يتوصلوا الى دقة نظر اساتذتهم في العلوم الفلكية فقد اصبحوا في كل شيء تلاميذهم ثم مزاحميهم »

وقال العلامة سايس « ان الحثيين الذين افتتحوا آسيا الصغرى منذ العصور القديمة هم مصدر نجاح اليونانيين » (الدبس ص ٢٠٥) وقال الاب فيكورو: اخذ عموم العلماء يقرون الان ان اليونانيين انتحلوا عن الاشوريين قسماً كبيراً من الصناعة انتقل اليهم من آسيا الصغرى بواسطة الحثيين، وقد اجتمعت في كركميش عاصمة الحثيين الصناعتان المصرية والاشورية، فألف اهلها من كليهما اسلوباً خاصاً بهم وزادوا عليها اشياء اخر اخترعوها. ثم تطرقت صناعتهم مرحلة فمرحلة الى بلاد اليونان » (الدبس ٢٠٤)

ثم ان الديانة الوثنية ومعبوداتها واحدة اصلا وجوهرا وان دخل عليها اختلاف في الاسماء مع بعض زيادات وتغييرات طفيفة اقتضتها حالة البلاد او الجهل أوالاهواء الشخصية. والسبب في ذلك هو ان الفينيقيين هم الذين نشروا هذه الديانة مع تجارتهم في اصقاع الارض. لان « تموز » السوريين هو ادونيس اليونانيين نفسه لكنهُ اصبح عند هؤلاء صياداً في سوريا مغرماً بامه عشتروت (اي الزهرة أو فينوس) فحسده « اراس » اليوناني وتقمص خنزيراً بريا وقتله (راجع الدبس ٣٦٣ — ٣٦٧)

ولولا ضيق المقام لأعدنا اهم معتقدات اليونان الى اصلها الفينيقي

وقد مر بك ان المصريين وان كانت لهم ديانة خاصة بهم الا انها بقيت سراً محفوظاً عند كهنتهم ولم يوجبوها على الشعوب المغلوبة منهم. ثم انهم لم يجولوا البحار ويستعمروا الامصار كالفينيقيين. واذا كان اليونان قد عادوا فعمموا الوثنية في المملكة الرومانية وتوابعها وقدموها في وادي النيل على ديانة مصر الاصلية فهم انما اقتدوا باساتذتهم السوريين وعلموا ما تلقنوه عنهم. فالسوريون بشروا بالوثنية كما بشروا باليهودية والنصرانية والمذاهب الارثوذكسية التي تفرعت منها. اما الاسلامية فقد تكملت وتمكنت في سوريا ثم انتشرت منها في مصر وباقي العالم. وعليه تكون العقائد التي حكمت وتحكم عقول العالم القديم والجديد سورية الاصل.

واخذ اليونان عن الفينيقيين الحروف الكتابية كما اخذوا عنهم معظم العلوم

التي اوصلوها الينا . وقد ترجموا عن الفينيقيين مقالات علمائهم الدينية والجغرافية والفلكية فضلا عن الكتب القانونية والصناعية والزراعية . وزادوا على ذلك بان نقل الينا مؤرخوهم تاريخ الفينيقيين واعمالهم . ومن اهم الكتب الفينيقية المنقولة الى اليونانية ترجمة « فيلون » الجبيلي (وهو غير فيلون اليهودي) لكتاب سنكونياتون البيروتي المشتمل على الكلام في اصل العالم ومواليد الالهة . وقد حفظ لنا اوسابيوس فقرات من هذا الكتاب ، لكننا نأسف على ضياع باقي هذه الترجمات التي لو كانت وصلت الينا لما كان لمكابر حجة في انكار فضل الفينيقيين على الحضارة اليونانية التي عمت العالم القديم الاقرب عهدا الينا .

وقد رأيت ان اليونانيين تعلموا من الفينيقيين اهم صناعاتهم اي صناعات المعادن وخاصة عمل الصفر والذهب ثم عمل الخزف والاواني والحلى الذهبية والفضية المرصعة بالجواهر . وقد اتقنوها وزخرفوها شأن كل تلميذ مجتهد نبيه . لكنهم لم يحيدوا عن مبادئها كما لا يخفى على الباحث الحاذق (راجع الدبس ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٥٨ ومسبرو ٢٩١ — ٢٩٥)

٣ — البطالسة وسوريا

ادخل اسكندر ذو القرنين سوريا ومصر في حضن مملكته الواسعة . ولما توفي في ٢٤ مايو سنة ٣٢٣ ق . م . اقتسم قواده مملكته فكانت مصر من حصة بطليموس الاول . وما كاد يثبت قدمه فيها حتى طمع باختها سوريا . فارسل نيكافور احد قواده اليها براً وسار هو بحراً باسطول عظيم ليمتلك سواحلها . ففاز بامنيته وضم الى مصر سوريا وجزيرة قبرس ابنتها . ولما عصاه اليهود حاصر اورشليم وافتتحها ومثل باهلها واخذ منها اكثر من مئة الف اسير احلهم في مصر وخصوصاً في الاسكندرية (راجع تاريخ مصر الحديث لزيدان ج اول ص ٧٢ وتاريخ سوريا للدبس ج ثالث ص ٩٢ — ٩٣) واصطحب معه الى مصر كل ما وجده من السفن في فينيقيا خوفاً من ان تقع في يد « انتيكون » صاحب سوريا فيقوى بها عليه . فاضطر انتيكون ان

يشغل الوفاً من العمال لقطع الاشجار من لبنان ونقلها وبناء السفن . ولما تم اسطوله استرجع به جزيرة قبرس بعد حروب شابت لهولها الاطفال . وظلت الحرب سجالا بين ملوك مصر وسوريا حتى جاء ديمتريوس ابن انتيكون الى مصر بجيش لا يقل عن مئتي الف محارب بين رجالة وبحارة . ولما وصل الى مصب النيل تخلى عنه معظم جيشه السوري وانضم الى خصمه بطليموس لرقة هذا وخشونة ذاك . فاضطر لعقد الصلح على ان تبقى فونيقي واليهودية في يد ملك مصر ما عدا صور وصيدا (راجع الدبس ج ٣ص ٩٤ — ٩٥)

وعاد النزاع الى اشده في ايام فيلوباتر المسمى بطليموس الرابع الذي سير بعيد جلوسه على عرش مصر جيشاً عرمرماً لمحاربة انطيوخس ملك سوريا ، لكنه فشل واضطر الى اعادة سوريا وفينيقيا اليه . ولما مات علم انطيوخوس بارتباك احوال مصر فقصد اليها محارباً ، لكن شاغلا عرض عليه اضطره الى العودة عنها ، فعقد مع نوابها صلحاً على ان يعطي ابنته كليوباترا زوجة لملكهم ابيفان (بطليموس الخامس) وكان ذلك .

وفي السنة الحادية عشرة من حكم فيلوماتر (بطليموس السادس) عادت الحرب فنشبت بين مصر وسوريا وما زالت مستعرة حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم ، فسار السوريون الى ممفيس براً وامتلكوها واستتب لهم الامر في وادي النيل. لكن فيلوماتر اخرجهم منها بعد اربع سنوات بمساعدة الرومان (راجع زيدان ص ٧٥ — ٧٧) وكان الرومانيون قد احتلوا سوريا وسيرينيا وليبيا وبلاد اليونان وقويت شوكتهم فاصبحت مصر محصورة منهم لا تستطيع حراكا ولا افلاتاً من قبضتهم وكانوا يتحينون الفرص ليضموها الى شقيقتها سوريا فخدمتهم الحوادث بعد قليل . اذ ان ديونوسيوس ملك مصر الملقب باوليتس لما طرده شعبه لعدم جدارته وسوء سيرته فرّ الى رومية واستنجدها فانجدته واعادته الى ملكه . وهكذا فعلت بعده كليوباترا المشهورة بالجمال والدهاء . فانها بعد ان اخرجها شعبها من مصر قصدت

يوليوس قيصر وارتمت بين يديه فلباها واعاد اليها ملكها . ثم انها تدخلت بعد ذلك بين بروتوس وانطونيوس القائدين الرومانيين المتحاربين في سوريا فنقضت المعاهدة ومدت الاول بالمال والرجال . فجاء اليها انطونيوس غاضبًا محاربًا لكنه وقع في حبائلها واستسلم لها وتفرد معها بحكم مصر . ولما لم يرق رومية هـذا الاتحاد والاستقلال ارسلت للمتحابين القائد اوكتافيوس بجيش قوي وقلب أقوى. فيئسا وانتحرا واستولى الرومانيون على القطر المصري . وكان ذلك في السنة الثلاثين قبل المسيح (راجع زيدان ص٧٨ — ٨١)

٤ — النصرانية في مصر والحبشة

جاء المسيح الى مصر طفلا هربًا من هيرودس فآوته حسب التقليد اشجار جنينة البيلسان في المطرية (هليو بوليس القديمة) ثم سكن مع امه والقديس يوسف قبوًا لا يزال معروفًا بمغارة العذراء في كنيسة ابي سرجه بمصر العتيقة . ويرجع هذا التقليد الى القرن الرابع وهو يحتاج الى شيء من التأييد خصوصًا ان المسيح كان مجهولا في طفولته لا يهتم الناس لروحاته وغدواته . ويقول التقليد نفسه ان الاصنام كانت تتساقط امام المسيح الطفل عند دخوله الى مصر . ومما لا ريب فيه ان اصنام مصر سقطت عند دخول تعاليمه اليها

فقد كانت الوثنية في صبغتها اليونانية منتشرة مع مبادئها ونتائجها في وادي النيل كما في باقي العالم القديم المتمدن . فكان التعجرف نافذًا لعقول العلماء والكبرياء مالئة لرؤوس الكبراء . وكانت الانانية قد قست قلوب الاغنياء واستسلمت الاجساد الى رجاسة الفحشاء . فظلم الشعب وامتصت دماؤه وحولت الى اغراض الاشخاص قواه واهواؤه . وامسى الضعيف بلا رحمة وتضور الفقير جوعًا فكلب ولا راحم ولا مدافع. واصبح الفسق فضيلة بل جعل الهًا معبودًا وتقوضت اركان العائلة . لان عواصف الشهوات الحيوانية اطلقت لنفسها العنان فجرفت الشفقة والعفة والفضيلة وعمت

القساوة والنخاسة وفسد جو العالم بجراثيم التحاسد والتحاقد . تطاحن الكبراء والاقوياء فطحنوا الشعب ولا من منصف ولا من رادع .

فلما ظهر المسيح ظهرت الفضيلة على وجه البسيطة . علمها بلسانه ومثاله ومات فداء عنها . انقادت اليه الالوف فلم يجيشهم بل ارشدهم واطعمهم وشفاهم وصرفهم. واكتفى بان اختار منهم اثني عشر تلميذاً اغلبهم من صيادي السمك وكلهم فقراء بسطاء ضعفاء . نفخ فيهم روحه ولقنهم مبادئه وبث فيهم شيئاً من شجاعته، فانتشروا ونشروا في المسكونة روح المساواة والاخاء والوداعة والطهارة . لم يحملوا سيفاً ولا هراوة ولا ذهباً ولا زاداً لا كتاباً ولا سحراً بل روحا جديدة مجردة طاهرة تغلبت تقاوتها على جراثيم الفساد كما يتغلب الاوكسيجن النقي على جراثيم الامراض العفنة . فانقلبت الاصنام وخضعت عقول الفلاسفة وانقادت الشعوب وانفرجت قلوب البؤساء والاذلاء وصار الفقير مساوياً للغني والضعيف كالقوي . وماعتم ان طأطأت لكلامهم رؤوس الملوك واصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب

جاء القديس مرقس تلميذ القديس بطرس رئيس الصحابة الى الاسكندرية في السنة الثانية والاربعين بعد ميلاد المسيح اي تسع سنوات بعد وفاته ، وكانت هذه المدينة منارة العلوم في العالم ومعقل الوثنية. فبشر بالمسيح مصلوباً عوضاً عن جوبيتر الجبار ابي الصواعق، وبمريم العذراء الطاهرة عوضاً عن عشتاروت او الزهرة العاهرة . واوصاهم ان يعبدوا الهاً واحداً عوضاً عن مئات الاصنام والحيوانات ، الهاً روحياً ساميا غير منظور لا تماسيح ولا ثعابين ولا عجولا . بشرهم بالفقر والمحبة والتواضع والعفة اي بكل ما يأسر الجسم ويحرر النفس ويقمع الشهوة ويذلها ويرفع النفس ويشرفها. ومع ذلك صادفت تعاليمه قبولا وانضم اليه كثيرون . ولما كبر نفوذ الرسول وثب عليه الوثنيون في ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ٦٨ واماتوه شر ميتة

ولكن تعاليمه لم تمت فشغفت بها قلوب السذج والضعفاء وخضعت لها عقول الفلاسفة والحكماء مثل فيتانوس الفيلسوف واكليمنضوس الاسكندري واوريجانوس

العفيف وغيرهم . وما زالت الخميرة الجيدة تفعل في عجين الشعب حتى اختمر كله وعمت المسيحية وادي النيل وواحات النوبة وتجاوزت الى صحراء السودان وبلاد الاحباش .

رأى الاب دوشين العالم الفرنسوي (راجع كتاب سيزوستريس بك سيداروس في البطريركيات ص ١٣٠٤) ان التبشير بالنصرانية في الحبشة والنوبة يعزى الى القديس متى الانجيلي . لكنها لم ترسخ فيها وتنتشر الا بسعي فرومنتوس واخيه اديزيوس . وهما اخوان مسيحيان سوريان من سواحل فينيقيا رماهما مركب على ساحل البحر الاحمر فالتقطهما تجار احباش وحملوهما الى بلاط اكسوم ملكهم نحو سنة ٣١٦ فكبرا واقيما وصيين على إزان ابن الملك، فارشداه وتوصلا الى حمله على انتحال الدين المسيحي مع قسم كبير من الشعب .»

«ثم جاء احدهما فرومنتوس الى الاسكندرية بين سنة ٣٤٠ و ٣٥٠ وطلب من اسقفها القديس اثناسيوس ان يرسل اسقفا الى تلك البلاد التي كانت على استعداد كبير لقبول الانجيل . فرأى القديس اثناسيوس ان فرومنتوس احق من الجميع بهذا المنصب واجدرهم بهذه الوظيفة فسامه اسقفا واعاده الى الحبشة حيث كلل تبشيره بنجاح عظيم»

(راجع كتاب الاب دوشين « الاستقلال الكنسي » ص ٢٦)

الفصل الخامس

السريان في القطر المصري

الطائفة السريانية من اقدم الطوائف السورية المسيحية التي تردد افرادها على وادي النيل . وما لبثوا ان استوطنوه وامتزجوا باهله ، ثم انضموا اليهم مع كنائسهم واديارهم واوقافهم حتى صاروا لا يميزون عنهم . ولكنهم قبل ان يتنازلوا عن قوميتهم قد اثروا في المصريين المسيحيين تأثيراً جعلهم كأنهم طائفة واحدة، فسهل عليهم هذا الاندماج . وهذا من غرائب التاريخ .

وقد كنا سألنا حضرة الفيكونت فيليب دي طرازي ، صاحب التآليف الشهيرة في طائفته السريانية ومدير دار الكتب الكبرى في بيروت ، ان يتفضل علينا بمعلوماته عن جالية هذه الطائفة في القطر المصري وعن تأثيرها في عقيدة العنصر الوطني المسيحي وطقسه ، فكلف حضرة القس اسحق ارمله القيام بهذا البحث . فلبى دعوتنا وارسل الينا خلاصة مباحثه . ولكنه لم يلبث ان توسع فيها ونشرها في مجلة المشرق سنة ١٩٢٥ . ثم طبعها على حدة في كراس يقع في ٧٦ صفحة واهدى الينا منها نسخة . فاخذنا اهم مواد هذا الفصل عنها .

١ — النسّاك

يطلق لفظ السريان على الآراميين عموماً اي على عنصر السريان الشرقيين ، وهم الكلدان، وعلى السريان الغربيين الذين امتدوا خصوصاً في سوريا وما يجاورها من بلاد بين النهرين . وقد بقي اسم الآراميين دالا على الوثنيين منهم .

وكانت العلائق عند ظهور النصرانية متواصلة بين سوريا ووادي النيل كما سبق القول . ولما شاعت في براري مصر الطريقة النسكية كثر تردد السريان على النساك المصريين ليتعرفوا بهم ويتبركوا منهم ويأخذوا عنهم هذه الطريقة . ومن جملتهم مار افرآم السرياني احد آباء الكنيسة، الذي اقام في دير الانبا بيشاي اسبوعاً كاملا،

ثم طاف في برية الصعيد مدة ثماني سنين . وقد جاء في سير القديسين ان ميلس اسقف شوشن الشهيد استمر في الصعيد سنتين وان مار ميخا انزوى فيه ١٥ سنة . وذهب ابرهيم الكبير (٥٠٣ ــ ٥٨٨) الى طور سينا وصعيد مصر وتلقن من رهبانه القوانين النسكية وانشأ لمواطنيه سنة ٥٧١ قوانين تماثلها (نشرها الاب شابو في رومية سنة ١٨٩٨)

واورد توما المرجي النسطوري عن ماران زخا انه صادف يوماً في جبل زيني شيخاً كلمه باللغة العربية . ولما استغرب معرفته لهذه اللغة قال له الشيخ « اني انتخبت يا مولاي من اربعين سنة اسقفاً لشعبنا السرياني المنتشر في القطر المصري »

وقد قصد كثير من النساك والاولياء المصريين بلاد سوريا وما بين النهرين لينشروا بين اهلها الطريقة النسكية . اشهرهم القديس اوجين الذي اصطحب معه اختيه وفئة من تلاميذه منهم القديس شليطا الذي رافقه الى جبل الازل . فتبع كثير من السوريين خطته . وقصد ثلاثمائة من الرهبان المصريين طور عبدين وانقطعوا فيه الى العبادة . فهاجمهم الفرس وقطعوا رؤوسهم . وما برح ذكرهم الى اليوم في صلوات السريان

٢ — المذهب اليعقوبي

وظل تردد الرهبان المصريين والسريان الى اديار بعضهم متواصلا حتى القرن السادس الذي انتشر فيه مذهب المنوفستيين اي القائلين بطبيعة واحدة في السيد المسيح ، ومنشئه في سوريا ديوسقوروس سنة ٤٤٤ . ولما عُزل ساويرا بطريرك السريان الانطاكي وهو احد تلاميذ ديوسقوروس ، توجه سنة ٥١٩ الى وادي النيل واقام فيه تسع عشرة سنة يذيع هذا الرأي . فنشره بين الاقباط . وبعد وفاته نصب السريان المنوفستيون مكانه يعقوب البرادعي اسقف الرها . فبعد ان طاف في بلاد سوريا واذاع فيها مذهب الطبيعة الواحدة ارتحل الى وادي النيل ونشر فيه هذا المذهب ورسم بيده في الاسكندرية فولا الحبشي بطريركا على السريان (٥٤١ ــ ٥٧٥) وكان هذا البطريرك اسكندري الاصل لكنه تلقى العلوم في انطاكية واتقن فيها السريانية واليونانية . واخذ مذهب يعقوب البرادعي ينتشر في مصر بسرعة حتى

انتحله جميع الاقباط وسمي منتحلوه باليعاقبة تمييزاً لهم عن اليونانيين او الروم. وكان هؤلاء اليونان بمساعدة مواطنيهم حاكمي مصر في ذلك العهد قد استبدوا بالوطنيين اكثر من استبدادهم اليوم بالسوريين، فاحتكروا السلطة الروحية واستقلوا بالاوقاف والكنائس واستذلوا الوطنيين حتى حملوهم على اعتناق المذهب الجديد تخلصا من نيرهم. واصبح انتحال المذهب اليعقوبي عند الاقباط عملا وطنيا. فالفوا كنيسة مستقلة عن اليونان واقاموا لهم بطريركا واساقفة. ولما جاء العرب الى القطر المصري اعانوهم على استملاكه واستعانوا بهم على اليونان فاعادوا اليهم كل الكنائس التي كانت لهم واقاموا فيها كهنة وطنيين. ثم بعثوا الى اهل النوبة اساقفة منهم بناء على طلبهم فانضموا اليهم. وتضعضع امر اليونانيين بعد احتلال العرب لمصر وانهزم بطريركهم الى القسطنطينية وظلوا سبعين سنة بغير بطريرك ولا كنيسة (٦٣٤–٧٢٥)

قال المقريزي (خطط ٢ : ٤٩٢) وقد ايده ابن العبري، ان السريان اوفدوا القس يوليان شماس البطريرك تاودوسيوس الى بلاد الحبشة فاذاع فيها مقال الطبيعة الواحدة وظل ثم سنتين يعمد الناس كل يوم حتى تنصر على يده ملك الحبشة وارباب الدولة وخضعوا باجمعهم للبطريرك القبطي (راجع في هذا البحث مقالة القس اسحق ارملة ص ١٠ — ١٢)

٣ — كتبة السريان في مصر

ولما تغلب مذهب الطبيعة الواحدة في مصر اخذ مشايعوه من السريان يفدون الى الاسكندرية لاتقان العلوم الرياضية واللاهوتية فيها والتضلع من اللغة اليونانية. حتى انك لا تجد كاتبا منهم الا وله الملم بهذه اللغة. وقد ادخلوا منها على لغتهم الفاظا كثيرة

ومن هؤلاء الكتبة اسطفان بر صُدَيلي الرهاوي مترجم كتاب هيروثاوس. ومنهم آباجاثليق السريان النساطرة (٥٣٦ — ٥٥٢) الذي جاء الى الاسكندرية بصحبة توما الرهاوي. ومنهم مارا اسقف الرها الذي نفي الى جزيرة العرب سنة ٥١٩ ثم سأل الملكة تاودورا فاذنت له في المجيء الى الاسكندرية فاقام بها الى وفاته.

ومنهم ايضا فولا الاسقف الذي اشتهر سنة ٥٢٨ بترجمة الكتب المقدسة ، وزكريا البليغ اسقف ملطيه الذي درس في الاسكندرية سنة ٥٠٥ وزاول علم الشرع في بيروت وصنف تاريخا مهما .

واقام توما الحرقلي زمنا طويلا في دير الانطونيين بقرب الاسكندرية حيث نقح ترجمة العهد الجديد سنة ٦١٦ وهي المستعملة الآن في طقوس المنوفستيين . وكان بصحبته جملة من اساقفة السريان .

ومنهم يعقوب الرهاوي الشهير (٧٠٨) الذي قصد الاسكندرية . ومنهم الربان حنين بن اسحق (٨٧٣) صاحب التآليف الشهيرة في الطب .

وكان كتبة السريان وادباؤهم المنوفستيون يبعثون الى الاسكندرية برسائل سريانية ليؤيدوا مشايعيهم في مذهبهم . وقد كتب يعقوب السروجي ٤١ رسالة نسخها الدراوي سنة ٦٠٣ في برية الصعيد (راجع مقالة القس ارملة ص ١٣—١٥)

٤ — بطاركة السريان والاقباط

ان وحدة المذهب بين الاقباط والسريان جعلتهم يتحدون قلبا وقالبا وصار بطاركتهم يتراسلون ولا سيما بعد ارتقائهم الى السدة البطريركية تأييداً لاتفاقهم في العقيدة . كما فعل البطريرك يوحنا الثاني (٥١٧) الذي كاتب ساويرا ، وديوسقوروس الثاني (٥٢٠) وتيموثاوس الثالث (٥٣٦)

وكان بعض البطاركة السريان يسيرون الى مصر للسبب عينه . كما فعل اثناسيوس الاول المعروف بالجمال (٥٩٥ — ٦٣١) فقد شخص الى مصر مع خمسة من اساقفته وزمرة من قسوسه ورهبانه وحمل الهدايا الى بطريركها انسطاس الاسكندري . فخرج هذا اليه باحتفال واحله ضيفا عنده اربعين يوما . وكتبا صكا صرحا فيه باتفاقهما في المعتقد . وكان ذلك سنة ٦١٦ وقد امضاه اولا انسطاس واساقفته على هذه الصورة : انسطاس برحمة الله اسقف الاسكندرية اوافق على هذا الصك واثبت هذه التعاليم ... واعتبركم يا اثناسيوس رئيس الكرسي الانطاكي اخا روحيا واقسم لكم يمين الشركة والاتحاد في الرأي . »

وفي سنة ٨٢٥ لما أمر محمد اخو الامير عبد الله صاحب مصر بتقويض كنائس السريان في الرها ارتحل الى مصر بطريركهم ديونوسيوس التلمحري ومعه شقيقه تاودوسيوس مطران الرها . فخرج النصارى وعددهم زهاء ثلاث ربوات وحيوه واحتفوا به . ثم واجه الامير عبد الله فقال له : كان الاولى بك ان تكتفي برسالة منك الينا فكنا نجيب طلبك . فاجابه البطريرك « ان مطران الرها قدم اليكم ليحتج على محمد عاملكم . اما انا فقد اقبلت لاتعهد امور الجماعة في مصر . على ان شؤون الطائفة بأسرها منوطة بي » فكتب الامير عبد الله الى اخيه ليرمم ما قوضه من الكنائس . وعاد ديونوسيوس الى الرها ظافرا .

وفي سنة ١٨٣١ استصحبه الخليفة المأمون الى مصر ليصالح الاقباط مع اساقفتهم . فاستقبله يوسف بطريركهم في الفسطاط ومضى به الى البشمور حيث كان النزاع قائمًا . فخرج الوجهاء لاستقباله فنصحهم وصالحهم مع اساقفتهم .

وواصل البطاركة السريان والاقباط المراسلات بينهم حتى القرن الثاني عشر . وترى في مخطوط كمبردج (عدد ٣٢٨٨) نتفًا من رسائلهم

ولم يغفل السريان ذكر البطاركة الاقباط في تواريخهم كما نتحقق من تاريخ ميخائيل الكبير الذي ارسل صورة ايمانه سنه ١١٦٧ الى بطريرك الاسكندرية . وهكذا فعل يونس بطريرك الاسكندرية الذي اوفد بعد انتخابه الاسقف بطرس الشيخ الى ميخائيل الكبير حاملا صورة اعتقاده

وكان نساخ الكتب السريانية يؤرخون سنة نسخهم لمخطوطاتهم بذكر البطريركين الانطاكي والاسكندري سواء نسخوها في سوريا او في مصر مما يبرهن على اتحاد الشعبين (راجع ارمله ص ١٣ — ٢٢)

٥ — تبادل السريان والاقباط بالبطاركة

ان فولا الحبشي الذي ذكرناه (٥٧٥) ثاني بطاركة السريان المنوفستيين اصله من الاسكندرية ودرس في انطاكية . وقد تقلد البطريركية على السريان ثاودور

(٦٤٩ — ٦٦٧) الذي ولد في صعيد مصر ودرس في دير قنسرين قرب حلب وتوفي فيه.

وتولى الكرسي الاسكندري في مصر عدة بطاركة كانوا من عنصر سرياني او مولودين في بلاد السريان اشهرهم دميانس . ثم الانبا سيمون الاول بطريرك الاسكندرية الثاني والاربعون، ولد في بلاد السريان ودرس في دير الزجاج بمصر، واقيم بطريركا باجماع الاراء سنة ٦٨٩ ، ودفن في دير الزجاج المذكور

وكان بطريرك الاقباط الثاني والستون سريانيًا يعرف بابن زرعه . انتخب سنة ٩٧٦ في قصر الشمع بالقاهرة وسكن الاسكندرية ومات مسمومًا بعد ثلاث سنين ونصف سنة . وهو الذي جدد بيعة مرقوريوس على شاطئ النيل . وكان خبيراً بالقواعد الدينية. جادل الملك المعز بحضور ساويرس اسقف الاشمونين المعروف بالمقفع . وهو الذي ادخل صوم نينوى في الكنيسة القبطية .

وكان مرقس الثالث بطريرك الاسكندرية سرياني الاصل تولى البطريركية من سنة ١١٦٦ الى سنة ١١٨٩

وجاء عن شمعون الطور عبديني اسقف جرجر السرياني انه بعد وفاة فيلكسين بطريرك السريان توجه الى مصر وارتسم بطريركا سنة ١٤٢١ بوضع يد بطريرك الاقباط غبريال الخامس . وبعد ان اقام زمنًا طويلا في القطر المصري حج الى اورشليم ومات فيها سنة ١٤٤٥ . وكتب البطريرك يوحنا الثامن عشر المارديني الى المفريان نوح البقوفاوي اللبناني يستمهله زمنًا ليذهبا معًا الى اورشليم . ثم يستأنف البطريرك المسير الى مصر لتفقد شؤون ابناء طائفته السريانية فيها .

فيتحصل من ذلك ان السريان كان لهم في مصر طائفة كبيرة معتبرة حتى اواخر القرن الخامس عشر ولكنهم لم يستصوبوا ان يقيموا لهم اسقفًا خصوصيًا دلالة على احترامهم لبطريرك الكنيسة القبطية واعتقاداً منهم انه يدبر السريان ويعتني بهم اعتناءه برعاياه الاقباط، خصوصا ان مذهب الطائفتين كان واحداً ولو اختلفتا في الجنسية

٦ — الطقس السرياني والقبطي والحبشي

ان الليترجية السريانية اصل كل الطقوس المسيحية لان الكنيسة انشئت اولاً في اورشليم ثم في انطاكية وكانت لغة كليهما السريانية. فالرسل احتفلوا الحفلات الاولى بهذه اللغة لغة المسيح ورسله. ومن يقابل بين الطقسين السرياني والقبطي يجد اصلهما واحدا واغلب الصلوات فيهما ان لم نقل كلها مطابقة بعضها البعض.

وقد نقل السريان الى لغتهم جملة ليترجيات قبطية حديثة كليترجية مار مرقس واثناسيوس وديوسقوروس وطيموثاوس بطاركة الاسكندرية. وكان بطاركة السريان واساقفتهم اذا رسموا شماسا او قسا اوجبوا عليه الطاعة لكلا البطريركين الانطاكي والاسكندري. وما برح القبط يذكرون في قداسهم ساويرا بطريرك السريان وبرصوما وافرام وماروثا السريان. ويعيدون لساويرا المذكور اعياداً كثيرة منها عيد في شهر بابه ذكراً لدخوله مصر. ويستعمل السريان في قداسهم ثمانية اغطية للمذبح يستر الكاهن باثنين منهما الصينية والكأس ويوزع الستة على الحاضرين ليمسحوا بها شفاههم بعد المناولة. وهذه عادة جارية عند الاقباط. ثم ان قربانة الاقباط تشبه قربانة السريان باستدارتها وحجمها وتجزئتها وصلبانها، والطابع عند كليهما من خشب، وزي الاحبار والكهنة واحد. ونجد في طقس الاقباط شيئاً كثيراً من تأليف السريان كميمر يعقوب السروجي ورتبة الكسر. كما ان السريان نقلوا عن القبط طقس رسامة الرهبان. ونجد في طقس الاقباط كلمات كثيرة سريانية كلفظة شماس ورشمه ولقان وميمر وابهاتنا وعتيد وتنيح والانبا.

وما قلناه عن الطقس القبطي يصدق على الحبشي. ونجد في ترجمة العهد الجديد الحبشية كلمات عديدة سريانية. ويستعمل الاحباش حتى اليوم ليترجية يعقوب السروجي فضلا عن صلوات كثيرة ترجموها الى لغتهم من السريانية.

فهذا دليل كاف على مشاركة الاقباط للسريان في طقوسهم البيعية وعاداتهم الدينية وعلى اتفاق الطائفتين واتحادهما واختلاطهما زمناً طويلا (راجع ارملة ص ٢٥ـ٣٠)

٧ ـ كنائس السريان في القطر المصري

ومما يدل على ان القطر المصري كان حافلا بالشعب السرياني من اول ظهور النصرانية الى اواخر القرن الخامس عشر كثرة الكنائس والاديار التي كانت له . فقد عرف فيها القس اسحق ارمله ثماني كنائس وتسعة عشر ديراً وبعضها باق الى الآن تشهد آثاره السريانية على اصله . وقد تقوض اغلبها في الاضطهادات التي ثارت ضد المسيحيين في هذا القطر والتي حملت عدداً غفيراً منهم الى انتحال الدين الاسلامي . وعلى اثر هذه الاضطهادات ندر توارد الرهبان السريان الى القطر المصري فضعف الشعب السرياني وانضم باقيه الى الكنيسة القبطية مع كنائسه واديارة واوقافه خصوصاً ان المذهب كان واحداً وكانوا خاضعين في امورهم الدينية من اول وجودهم وفي اوج عزهم الى السلطة المحلية .

وقد عرفنا للسريان في الفسطاط كنيستين احداهما كبيرة باسم مار يوحنا والاخرى باسم والدة الله .

وورد في كتاب المؤرخ الرهاوي ما ترجمته « ان اثناسيوس برجوميا الرهاوي بنى كنيستين في الفسطاط لابناء جنسه . وكان المذكور على جانب عظيم من المعارف والسياسة فاستدعاه الملك ابن مروان (٧٠٥) الى دمشق واوفده الى مصر صحبة اخيه الفتى واوصاه به ونصبه مديراً للقطر المصري وناط به امر الحل والعقد . وولى انجاله بلد جوندا . فظل اثناسيوس واسرته في مصر احدى وعشرين سنة . وكان يجل الاكليرس ويكرمهم وصرف المساعي الطيبة في انشاء الكنائس وبذل الصدقات لليتامى والارامل وشاد كنيستين كبيرتين في فسطاط مصر (راجع التاريخ الرهاوي ف ١٤٩ ص ١٨٩)

وذكر المقريزي في خططه كنيسة ثالثة للسريان بقرب السد فيما بين الكيمان بطريق مصر ، واخرى باسم ماروثا بناحية شمسطا . وكنيستين في الخندق ظاهر القاهرة احداهما باسم القديس مرقوريوس (راجع المقريزي ٢ : ٥١١ — ٥١٥)

وورد في كتاب صلوات سريانية منسوخ سنة ١٠٠٧ م اسم « القس عبدا راهب كنيسة مصر »

وكان للسريان كنيسة سابعة في سنموطيه ذكرها الشيخ فاضل جرجس بن العميد مكمل تاريخ ابي جعفر الطبري (طبع في لندن سنة ١٦٢٥ راجع كتاب المخطوطات العربية للاب شيخو ص١٣) قال « وفي ايام الآمر بالله (١١٠١ـ١١٢٠) قدم من تكريت رجل نصراني سرياني اسمه طيب بن يوسف ومعه احمال كثيرة من الحرير عمل الهند واليمن . فقدم للخليفة هدايا من اجودها . فانعم عليه بقرية من اعمال الحوف اسمها بهيدة مجاورة لدماص . ولما مات الخليفة انتقل الشيخ طيب وسكن سنموطية . وتزوج ورزق ولداً سماه قروينة ومات ودفن بكنيسة سنموطية . اما قروينة فاشتغل بصناعة الكتابة وتصرف في الخدم الديوانية ورزق ولداً سماه باسم جده . وكان كاتباً حاذقاً لبيباً ورحل الى القاهرة واجتمع بالاكابر . فاستخدموه صاحب ديوان العربية . واقام سبع سنين واشتهر . ورغب في الزراعات وكثرة المواشي حتى صار ماله عشرين الف دينار . وكان له خمسة اولاد فصار منهم اربعة اساقفة ، واصغرهم ابو المكارم كانت له مواشي الزراعات وخلايا نحل تزيد على الف خلية . وتزوج اخت المكين سمعان بن خليل من اهل ميكائيل بشو . وخدم سمعان بديوان الجيش في ايام الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣) . ثم ترك الخدمة وترهب بدير ابو يحنس القصير ببرية الاسقيط بوادي هبيب . وولد ابو المكارم ابن ابي الطيب ثلاثة اولاد : النجيب ابو الفضل والعميد ابو الياسر والد المؤرخ والمخلص ابو الزهر . وتوفيت زوجته فترهب وتوفي سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩) ، واستخدم العميد ابو الياس في ديوان الجيش موضع خاله المكين سمعان . وكانت سيرته بين العالم مثل سيرة الرهبان القديسين . واقام بديوان الجيش ٤٥ سنة ومات في صفر ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) وتوفي الشيخ جرجس ابن العميد المؤرخ سنة ١٢٧٣ »

فانت ترى من هذه الوثيقة التاريخية ان السوريين كان لهم في مصر من قديم

الزمان مكانة في العلوم والسياسة والتجارة والزراعة وانهم بلغوا اعلى مناصب الحكومة واعلى درجات الرقي والثروة كما بلغ احفادهم في القرون الاخيرة من عهد علي بك الكبير في اواسط القرن الثامن عشر الى يومنا هذا . وقد نشطوا لاعمال الزراعة وبلغوا فيها شأوا بعيداً . وكان المئات من رهبانهم يملكون في وادي النيل مساحات كبيرة من الاطيان الزراعية للقيام باديارهم العديدة وكانوا من امهر الزراع واكبرهم . وقد لقنوا المصريين، خصوصاً في الوجه القبلي، مبادىء هذا الفن واسراره فخدموا وطنهم الثاني اجل خدمة في موارده الزراعية والتجارية كما خدموه في ادارة شؤونه الداخلية .

اما الكنيسة الثامنة فقد شادها تجار تكريت السريان الذين كانوا يترددون بكثرة الى وادي النيل وكانوا بين السريان احسنهم حالاً واطولهم باعاً في هذا الفن . وقد جعلوها تحت اسم مار بهنام الذي استشهد في بلادهم، وموقعها في مصر العتيقة قرب مدافن اللاتين الحالية . وقد ظلت هذه الكنيسة في حوزة السريان حتى تولى ادارتها وخدمة شعبها الربان الياس بن امير خان الديار بكري السرياني الكاثوليكي الذي اوفده الى القطر المصري في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٧٤ م السيد غريغوريوس يوسف قدسي مطران اورشليم . وهي آخر كنيسة بقيت في يد السريان . وقد استولى عليها الاقباط واستبدلوا اسمها الاصلي باسم القديس مينا

(راجع كتاب السلاسل الذهبية للكونت فيليب ده طرازي ص ٣٨١ وقد ذكر سجل الفرنسيسكان ان الربان الياس المذكور توفي في مصر بالطاعون في ٢١ مايو سنة ١٧٩٨)

٨ — اديار السريان في القطر المصري

شيد السريان في القطر المصري اديراً عديدة عُرف منها الى الآن تسعة عشر ديراً . واقتنوا لها اراضي زراعية واسعة كانوا يدأبون على العمل فيها كما يفرض عليهم قانونهم الرهباني . وكان قسم من رهبانها ينقطع الى نسخ الكتب والتأليف في كل

فروع العلوم الدينية والرياضية والتاريخية والادبية حتى اصبحت هذه الديورة من اهم معاهد الرقي المادي والادبي في القطر المصري. وظلت على هذه الحال من القرن السابع حتى القرن الثامن عشر. وقد حفظت في مكاتبها كما سيأتي القول كنوزاً ثمينة لولاها لحرمها العلم ولانقطعت عنا من سلسلة المعارف حلقات قرون عديدة

واول دير عرفناه هو دير مار رومانوس الكبير المعروف بدير قسين. سكنه يعقوب البرادعي امام السريان المنوفستين ورسول الاقباط. وقد لقي فيه حتفه هو واصحابه

والثاني دير بوساويرس اول بطاركة هؤلاء السريان. جاء مصر سنة ٥١٦ واقام فيها تسع عشرة سنة يجول من دير الى دير حتى وصل الى وادي هبيب منهزماً وتوفي فيه سنة ٥٣٨. فشاد السريان على ضريحه ديراً عظيماً سموه باسمه.

٣ — دير الزجاج الذي درس فيه سيمون السرياني

٤ — دير شعران ويسمى دير برصوما في حدود ناحية طرّا. وكان يعرف قديماً بدير مرقوره ولما سكنه برصوما بن التيان عرف باسمه.

٥ — دير الانطونيين الواقع في قرية اناطون بالاسكندرية كان مورد الكتبة وطلاب العلوم السريانية واليونانية. وفيه نقح توما الحرقلي ترجمة العهد الجديد سنة ٦١٦ المنقولة من السريانية الى اليونانية. وصار اليه يعقوب الرهاوي المتوفي سنة ٧٠٨ وغيره من ائمة السريان واكملوا فيه علومهم

٦ — دير الخندق ظاهر مصر ذكر المقريزي ان القائد جوهر عمره عوضاً عن دير هدمه

٧ — دير مار ثاودور في الجبل الغربي

٨ — دير مار مايكيل في برية ماريس ذكره مخطوط منسوخ في اوائل القرن التاسع

٩ — دير الانبا مقاريس وهو غير دير مقار الكبير. وكان يبعد ثلاث ساعات عن دير السريان الشهير باسم والدة الله

١٠ — دير الانبا فولا بجانب دير مار انطونيوس. وكان فيه مكتبة سريانية نفيسة

١١ — دير الانبا انطونيوس

١٢ — دير الانبا بيشاي الذي زاره مار افرام السرياني ومكث فيه اسبوعًا

١٣ — دير الانبا يوحنا الصغير ذكر في مخطوط نسخ سنة ١٢٥٤

١٤ — دير الاقليم ذكره مخطوط منسوخ سنة ١١٧٤ وكان في برية مصر بوادي بهري.

١٥ — دير مريم العذراء في الجزيرة باقليم الاسكندرية وهو غير دير والدة الله الكبير

١٦ — دير مار يونان في ماريس . ذكره مخطوط منسوخ في عهد البطريرك قزما الثاني المتوفي في سنة ٨٧٤

١٧ — دير الانبا صموئيل ويعرف بدير القلمون (قرب الفيوم) وهو على مقربة من دير ابي مقار ، كان من اوفر الديورة السريانية عمرانًا وارزاقًا . قال عنه المقريزي (٢ : ٥٠٥) انه «بني في زمن الفترة بين عيسى ومحمد وفيه قصران مبنيان بالحجارة وهما عاليان كبيران لبياضهما اشراق . وفيه ايضًا عين ماء تجري وفي خارجه عين اخرى ». وقال « وبهذا الوادي عدة معابد قديمة ثم واد يقال له الامياح فيه عين ماء تجري ونخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها . وخارج هذا الدير ملاّحة يبيع الرهبان ملحها فيعم تلك الجهات »

١٨ — دير مار جرجس ابتناه السريان الشرقيون اي النساطرة . قال فيه الشيخ ابو صالح الارمني (ص ٥٤) « وهو من العمارة الحسنة المحكمة ومن المستنزهات المشهورة الموصوفة . وكان الشيخ ابو الفضائل النسطوري اهتم بعمارة ما تشعث منه وجدده احسن عمارة بالحجر المنحوت وكان فيه عدة كبيرة من رهبان النسطور . ولهذا الدير ارض للزراعة ملك الدير . . . »

وكثرة هذه الديورة وعظمتها دلالة واضحة على ما كان عليه الشعب السرياني في القطر المصري من الكثرة والاهمية ورفعة الشأن (راجع في هذه الاديار مقالة ارمله ص ٣٤ — ٤١)

٩ — دير والدة الله في صعيد مصر

كان مشهوراً بهذا الاسم وعرف عند الاقباط بدير ابي يحنس كاما وهو يعد من اكبر واغنى وارقى الديورة السريانية في القطر المصري . وقد كان خاصاً برهبانهم الاتقياء والعلماء الذين اغنوا القطر المصري والعالم اجمع بمؤلفاتهم ومخطوطاتهم . ويغلب على الظن ان هذا الدير اسس قبل سنة ٦٠٦ لان احد مخطوطاته نسخ في سنة ٦٠٣ . وقد وقع في حوزة القبط فخلصه رهبان وافوا من تكريت ببلغ اثني عشر الف ذهب . وكان فيه نحو مئة راهب . وقد توارد اليه الرهبان والتجار التكريتيون منذ القرن السابع حاملين اليه العطايا الجزيلة والمخطوطات الثمينة . وقصده عدد غير قليل من رهبان ما بين النهرين وفونيقي وفلسطين وسوريا . وقد انبأنا احد مخطوطاته ان اثني عشر رجلا وافوه من سوريا سنة ١٢٠٦ . وكان اهم شغل هؤلاء الرهبان مع الزراعة التأليف والنسخ والتنقيح . وكانوا يدرسون ايضاً اللغة القبطية فنقلوا منها شيئاً كثيراً الى السريانية .

وقد نشر الاب اسحق ارمله كشفاً باسماء الرؤساء الذين تعاقبوا عليه من سنة ٧٢٠ حتى القرن الغابر (ص ٤٢ — ٤٤) منهم المطران ساويرس قرياقس (١٤٩٢) الذي كان من جبل لبنان من مقاطعة طرابلس »

ووقع هذا الدير نهائياً في ايدي الاقباط فجعلوه معهداً لرهبانهم واكليرسهم فاخرج لهم علماء ورجالاً كثيرين من بطاركة واساقفة وكهنة منهم البطريرك غبريال السابع (١٥٢٦ — ١٥٧٠) وكيرلس الثامن بطريركهم الحالي .

ويشتمل الدير اولاً على كنيسة للعذراء بالمغارة (٢) على مغطس في وسطه رسم صليب كتقاليد السريان (٣) كنيسة الاربعين شهيداً (٤) مقبرة الانبا مرقس مطران الحبشة (٥) كنيسة اخرى للعذراء بها ايقونات عديدة من خشب الصنوبر مطعمة بالعاج . وبينها ايقونة مار مرقس على حجاب الهيكل مع ايقونات ديوسقوروس وساويرس وابي يحنس الذين لهم الرتبة الاولى عند السريان . وفي هذه الكنيسة

اعمدة صغيرة من رخام وضعت فيها منذ ثلاثمائة سنة . وتجد للآن فوق المذبح حجراً نقشت عليه هذه الكلمات بحروف سطرنجيلية (اي الحروف السريانية القديمة التي اشتقت منها الحروف الكوفية العربية ، وهي مربعة مثلها)« شيد هذا البناء في عيد القس موسى النصيبيني رئيس الدير »(السادس الذي ترأس على الدير سنة ٩٢٠) وهو الذي جال في بلاد السريان وجمع له الحسنات والمخطوطات ففكه من الديون المتراكمة عليه .

وفي غرب الدير مائدة طولها ١٥ متراً . وفي جنوبه محل مختص بعبادة الانبا بيشاي . وفيه ايضاً كنيسة صغيرة باسم ابي يحنس وهي شرقي الشجرة المنسوبة الى مار افرام الكبير . وفي هذا الدير قصر فخم ملاصق للبوابة العمومية ارتفاعه ١٢ متراً مؤلف من خمس طبقات في اسفلها طاحون للدقيق وفي الرابعة منها كنيسة باسم الملاك ميخائيل ومكتبة الدير . وارتفاع السور ١٢ متراً في عرض ثلاثة امتار .

(ارمله ص ٤١ — ٤٦ والاب جوليان اليسوعي ص ٣٠ عدد ١٠)

١٠ — مكتبة دير والدة الله

كانت سوريا قبل الاحتلال العثماني في مقدمة البلدان في العلوم والاداب والفنون ، وكما ان الرومانيين اخضعوا اليونانيين مدنياً وخضعوا لهم علمياً هكذا العرب لما فتحوا سوريا فتح لهم السوريون كنوز علومهم فكان السوريون مرؤوسيهم في الملك وساداتهم في المعارف . وقد شغف العرب بالعلم فقرب الخلفاء اليهم ائمة من السوريين وجعلوهم اطباءهم ووكلوا اليهم العناية بابدانهم وعقولهم وتهذيب اولادهم . وكانوا يستشيرونهم في مهام المملكة ويوقرونهم بالرغم من اختلافهم معهم في الآراء الدينية ، كما هو مشهور عن بختيشوع واولاده وغيرهم . واصبح الخلفاء العرب من اكبر منشطي العلوم والآداب والفنون . فازدهرت سوريا وبلاد ما بين النهرين بالمعارف ولم يضؤل فيهما نور العلم الا بعد احتلال الاتراك .

وكان للسريان ولع عظيم بجمع الكتب ونسخها حتى ان « صلاح الدين

الايوبي لما فتح مدينة آمد (ديار بكر) سنة ١١٨٣ وجد فيها الف الف واربعين الف مجلد استحوذ عليها برمتها ودفعها الى كاتبه الفاضل فحملها الى مصر » (راجع التاريخ المدني لابن العبري ص ٣٦٢) وكان السريان اذا خافوا على خزائن كتبهم من النهب ينقلون نفائسها الى محل امين . وهذا ما حدا كثيرين منهم ان ينقلوا الى دير والدة الله في صعيد مصر الوفاً من الاسفار والتصانيف في كل فروع العلوم .

ويرتقي عهد نسخ مخطوطات هذا الدير الى القرن الخامس والسادس ومنها ما كتب باصله السرياني لاستعمال الطوائف السريانية والمارونية والملكية والكلدانية، ومنها ما نقل الى السريانية واليونانية والقبطية والعربية .

ويعود اكبر الفضل في جمع هذه الكتب الى القس موسى النصيبيني الذي تولى رآسة هذا الدير نحو سنة ٩٢٠ كما قلنا . فانه تكبد مدة ثلاث سنين مشاق الاسفار في سوريا وما بين النهرين والعراق وجمع من الكتب الثمينة نحو مائتين وخمسين مجلداً ضخماً ، وعاد بها سنة ٩٣٢ الى ديره في صعيد مصر وانشأ لها قاعة خصوصية ونظمها تنظيماً متقناً . فاقبل الرهبان على اجتناء فوائدها ونشر محتوياتها واقتناء غيرها ونسخ بعضها حتى اصبح لديهم ما يربو عن الف مجلد . وقد بذلوا عنايتهم في تجليدها وتجديدها وتنظيفها .

واول من اكتشف هذه المخطوطات الثمينة القس جبرايل حوا الحلبي الماروني. فانه لما انفصل سنة ١٧٠٠ عن رفيقه القس عبد الله قرألي مؤسس الرهبنة اللبنانية ، قصد رومية العظمى وحظي بمواجهة الحبر الاعظم . فكلفه مهمة السعي في وحدة الاقباط مع الكنيسة الكاثوليكية فعاد الى الشرق وجال مصر وعثر على الكنوز التي كانت مخبوءة في اديارها

ولما عاد الى رومية اذاع فيها خبر هذه الكنوز . وكان العلماء في اشد جدالهم مع البروتستانت (راجع اعمال الشهداء الشرقيين للاب لاجرانج (ص ٥ — ٩) فكان لهذه البشرى وقع عظيم ، فاوفد الحبر الاعظم القس الياس السمعاني الماروني

اليسوعي كاتب البطريرك اسطفان الدويهي المؤرخ والعلامة الشهير (المتوفي ١٧٠٤) فابتاع عدداً من هذه الكتب وحملها الى رومية .

وفي سنة ١٧١٥ اوفد البابا اقليمس الحادي عشر المونسنيور يوسف سمعان السمعاني العلامة الشهير الى وادي النيل فاشترى قسماً صالحاً من هذه الاسفار ونسخ ما لم يسمح الرهبان ببيعه وحمله الى روميه واودعه في مكتبة الفاتيكان التي كان وكيلها، والف في درس هذه المخطوطات والتعليق عليها كتابه الشهير « بالمكتبة الشرقية » . وهو مؤلف ضخم في عدة مجلدات اظهر فيه من غزارة العلم وسعة المعارف ودقة النظر ما خلد ذكره بين علماء الغرب والشرق ولفت نظر متنوري الغرب ولا سيما الانكليز منهم . فقصدوا هذا الدير و بذلوا كل ثمين وغال حتى اشتروا ما تبقى من مكتبته وحملوه برمته الى لندن ونشروا فهرسه في ثلاثة مجلدات .

ففي سنة ١٨٤٢ جاء المستر تاتام السائح الانكليزي الى القطر المصري واخذ من هذا الدير ثلاثمائة مخطوط مكتوب على رق غزال، فضلاً عن عدد عظيم من هذه الكتب الثمينة .

وقد توزعت مكتبة هذا الدير في مكاتب اوربا واصبحت اثمن تحفها . منها في باريس وميلان و برلين واكسفورد وكمبردج . وما زال في القطر المصري بقايا من هذه الكتب الثمينة المودوعة فيها قديماً من التجار والرهبان السريان ، وهي مخبأة في بيوت الخاصة و بعض المكاتب والمتاحف .

وهذا يدلك على مبلغ رقي السوريين ورغبتهم في المعارف، و يبين الخدم الادبية التي قدموها لهذا القطر وللعالم باسره خصوصاً في عصوره المظلمة

* * *

راجع بيان بعض هذه الكتب الثمينة في بحث القس اسحق ارمله ص٥٣ــ٦٦ ومن ضمن تحفها كتاب مار يوحنا المتوحد (عدد ٥٧٢) منسوخ سنة ٥٨١ ورد فيه ما شرحه: «فليذكر القس متى من قرية قولباي ببلاد صوفنيا الساكن في دير الطوباوي مار مارون.

دخل هذا الكتاب الى مكتبة مار مارون سنة ٧٤٥ م في عهد جورجي رئيس الدير ومار قزما رئيس دير مغارة مصر (بانطاكية) ومار ذكريا رئيس الرامة . . . فليكن ذكر طيباً للرهبان التكريتيين الذين وضعوا هذا الكتاب في كنيسة والدة الله في الصعيد » وهذه الحاشية من اقدم الوثائق التي ذكرت دير القديس مارون ودلت على وجود الموارنة في شمال سوريا قبل نزوحهم الى جبال لبنان

(راجع هذه الحاشية في مقالة ارمله ص ٦٥)

الفصل السادس

الدول العربية ٦٤٠ — ١٢٥٠ م

١ — بين الموجتين

مصيف رأس البر بقرب دمياط لسان من اليابسة ينحسر عنه البحر في الصيف ويضمه غرباً وشمالا ، ويحده النيل من الجهة الشرقية شاطراً بين رماله البيضاء النقية وخضرة « العزبة » الواقفة عن يمينه .

قصدناه لاول مرة في صيف سنة ١٩١٤ ولما بلغنا أدقه في المكان المسمى « بين الموجتين » لفت نظرنا مشهد التقاء البحرين، النيل واليم . وكأنهما في نزاع وصراع . وكانت الغزالة منحدرة للغروب وقد تقدمها رسولها النسيم . فكان يداعب جفوننا وينعش صدورنا ، ويمر بأنفاسه الناعمة فوق وجهي البحرين ، فيهتزان ويضطربان، ثم يتحول الى نخيل العزبة فتترنح قاماته الهيفاء .

اما الغزالة فكانت تقترب بشفاهها الذهبية فتلثم مويجات البحر اللؤلؤية وتجاعيد النيل الوردية، وتنثر بسخاء غبار ذهبها بين اغصان الاشجار . فتدب الغيرة في قلوب الجميع . فمن نخيل ينتفض غيظاً وهو لا يستطيع الانتقال، فينطح الجو يميناً وشمالاً . ومن نيل يسطو بمياهه الحمراء على جاره البحر فيعكر قلبه ويحول لونه الى اصفرار الغضب .

فيتقهقر البحر قليلا ولا يلبث ان يهجم بدوره زاحفاً بامواجه المزبدة على النيل شقيقه ومزاحمه، فيزرق النيل كدراً ويقذفه بأوحاله.

والاسماك بين هذا وذاك حائرة في هذا العراك. فبعضها يقفز ويختنق ويقع غنيمة سهلة في شباك الصيادين، وبعضها يعبر من بحر الى آخر. فالتي تنتقل من النيل الى المالح تفرح لمجالاته الواسعة والوانه الزاهية واوديته المتلألئة فيطيب لها المقام وتعتاد ماءه الصافي وان كان مالحاً ومراعي صخوره اللذيذة وان كانت شاقة. فتعشش فيها وتنمو وتتكاثر.

اما الاسراب التي تصعد من البحر الى النيل فلا تلبث ان تفضل ماءه العذب وان كان عكراً وتنشرح لخضرته الدائمة ومروجه الخصبة وخيراته الغزيرة وهدوء اطواره حيث لا عواصف ولا أنواء، فتتخذه لها وطناً ثانياً مع حنينها الدائم الى الاول

واذا مضت الايام والسنون والقرون على كلا النوعين فهل يميزهما الصيادون؟

هكذا قل عن علاقات مصر وسوريا في العهد القديم من التاريخ الذي القينا عليه نظرة سريعة، والمتوسط الذي نروم ان نسرده باختصار في هذين الفصلين، والحديث الذي نقصده بكتابنا هذا. فانصباب المهاجرين من قطر الى آخر دائم وطبيعي لانهما متجاوران مترابطان في شؤونهما السياسية والاقتصادية والادبية والدينية. وزاد انتشار الدين الاسلامي فيهما اختلاط العنصرين وسهّل تعميم اللغة العربية بينهما وخضوعهما لخلافة او سلطنة واحدة سواء كان مركزها في مكة او دمشق او بغداد او في السامرة او الناصرة او الاستانة. وكانت الجيوش الجرارة تعبر من قطر الى آخر وكثيراً ما تبقى فيه لتوطيد سلطة بلادها، فضلا عن ان آلاف الاسرى المجلوبين من القطر المغلوب يستوطنون غالباً القطر الغالب ويصبحون بعد مدة من سكانه لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. فكل معركة او غزوة كانت تياراً قوياً يصب جماهير البلدين الواحد في الآخر. واذا استقرت الامور فتحت المواصلات امام التجار والصناع وطلاب الوظائف والرزق او اللاجئين السياسيين.

فهل للعارفين ان يميزوا بين الاصليين من هؤلاء السكان بعد كل هذا التردد والامتزاج وطول هذه السنين والقرون ؟ وهل من يتجاسر ان يلقب الفريق الآخر بالدخيل ويأمن عدم انطباق هذا اللقب عليه ؟ فوأيم الحق ليس المصريون في بلادهم بأكثر مصرية من السوريين ولا السوريون في بلادهم بأكثر سورية من اخوانهم المصريين ولا اللبنانيون بفينيقيين اكثر من غيرهم بعد كل هذا التردد الطويل والاختلاط الكثير والقرون العديدة .

٣ — الديانة الاسلامية

دخلت الديانة الاسلامية القطر المصري مع العرب الفاتحين الذين جاؤوها من سوريا . وما لبثت ان اتخذت فيه كما في سوريا وسائر العالم الشرقي المقام الاول على حساب الديانتين النصرانية واليهودية التي نشأت منهما . فقد اخذت منهما اهم قواعدها وانحاز اليها اغلب منتحليهما هرباً من الضغط او الفقر او طمعاً في الحقوق الممنوحة لذويها وهي امتيازات الغالب .

ظهرت الاسلامية اولا في الحجاز لكنها كانت دخيلة . وكما قامت النصرانية على دعائم اليهودية تأسست الاسلامية على قواعد كلتيهما . كان صاحب الشريعة الاسلامية ، يجهل القراءة والكتابة لكنه حفظ جيداً الكتاب المقدس في عهديه القديم والحديث اي توراة اليهود وانجيل النصارى . ولا نعلم هل تعلمه من تردده مع القوافل الى دمشق وبعض مدن سوريا او من دروسه على راهب البحيرة النسطوري او من مخالطته لقبائل العرب النصرانية او من ذلك جميعاً . لكن مما لا ريب فيه انه كوّن من الكتاب المقدس القسمين التاريخي والتقليدي من القرآن . فنقل عنه اخبار خلق العالم وقصص الآباء الاقدمين آدم ونوح وابرهيم وموسى والانبياء والمسيح . واخذ عنه ايضاً معظم المبادىء والشرائع التي قامت عليها ديانته مع بعض تغيير او زيادة .

ولما كان على جانب عظيم من الذكاء لم يخترع من هاتين الديانتين الا ما يوافق

مزاج قبائل البادية التي قصدا كتسابها لدعوته . فجاءت ديانته لبساطتها اي لتجردها من الاسرار النصرانية ولسعتها في الشرائع اقرب الى الفهم واسهل على الطبع

وقد نخرج عن موضوعنا لو احببنا الاشارة الى علاقة الاسلامية بالديانتين اللتين سبقتاها . فما عليك الا ان تطالع الكتب العديدة التي بحثت في هذا الموضوع الخطير كمؤلف ادوار سايوس Edward Sayous في الديانة الرومانية والعصور الوسطى في الشرق ص ١٦١ — ١٩٩ وملخص كلامه في ص ١٨١ وكتاب المشرع للاب بولس سباط . وكشف النقاب عن آيات الكتاب لنصر الله قرألي ومقالات شتى في مجلة تاريخ الديانات Revue de L'Histoire des Religions وخاصة مقالة الاب دوبرويل عن اصل الاسلام المنشورة في المجلة المذكورة سنة ١٨٨٩ وغيرهم كثيرون.

والذي يهمنا الآن هو لفت نظر القراء الى ان الديانة الاسلامية مجموعة من الديانتين اليهودية والنصرانية الناشئتين في سوريا والسائدتين فيها وان انضمام العدد الغفير من السوريين المتنورين الى هذه الديانة الخارجة من الصحراء قد اكسبها قوة ورونقاً لم يكن يحلم به مشايعوها من اهل البادية . لان سوريا كانت وقتئذ اكبر معهد في الشرق للعلوم الوضعية والدينية والفنون الجميلة وفي مقدمة بلدان العالم رقياً وتمدناً .

وكان الضعف قد استحوذ على الدين المسيحي في سوريا من جراء الانقسامات التي مزقته فسهل على الاسلامية جرف عدد كبير من اتباعه. كالنهر اذا سهلت طريقه وعظم شأنه جذب اليه كل الجداول والانهر التي يلقاها في سيره ، فجاز الصحراء واجتاح سوريا وطغى على مصر والنوبة والسودان وبلاد المغرب . وانساب في بلاد العجم والهند والقوقاس وخطا الى اسبانيا وسردينيا وقبرس وجزر اليونان والاناضول وكاد يغرق اوربا نفسها . واصبح للاسلامية بين الديانات المقام الاول في الشرق والثاني في العالم .

وقد سهل تيار هذا السيل على عدد غفير من السوريين دخول القطر المصري

فجاؤوا كمجاهدين او كفنيين ، فكان منهم الجنود والقواد والاطباء والمهندسون والصناع والمعلمون. واشتد تيار المهاجرة بعد انضمام القطرين الى سلطة واحدة واتسعت بينهما العلاقات السياسية والاقتصادية والادبية حتى اصبحا صاحبي السيادة على العالم الشرقي بأسره وجزء كبير من العالم الغربي . وكانت سوريا اذا اعتزت ضمت اليها شقيقتها مصر واذا تسلمت مصر القيادة تولت شؤون شقيقتها مع باقي بلدان المملكة الاسلامية المترامية الاطراف

فلننظر اولا في علاقات هذين القطرين السياسية في عهد الدول الاسلامية مبتدئين بالدول العربية اي التي سبقت المماليك وآل عثمان . وقد عاد دنا دولة الأيوبيين عربية مع اصلهم الاعجمي لانهم تعربوا في لغتهم وعاداتهم وطرق ادارتهم .

(نأخذ اغلب ما لخصناه في هذين الفصلين عن تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجي زيدان)

٣ — الخلفاء الراشدون والدولة الاموية

الخلفاء الراشدون (٦٣٤ — ٦٤٤) — رأيت كيف ان الاقباط اي المسيحيين المصريين الاصليين لما ضاق صدرهم من استبداد اليونانيين تمذهبوا باليعقوبية التي تلمذهم فيها السريان . فزادهم اليونان ضغطاً على حريتهم المدنية وساموهم الذل وكبدوهم الخسائر الباهظة وسلبوهم كل اوقافهم ومعاهدهم . وكان العرب المسلمون قد قويت شوكتهم في سوريا فكاتبهم الاقباط وشجعوهم على احتلال وادي النيل . فقصدوا الى مصر . ولما اطلوا على ابوابها فتح لهم الاقباط الفسطاط وصحبوهم الى الاسكندرية عاصمة الاروام فدخلوها معهم منتصرين منتقمين . واستعادوا اوقافهم ومعاهدهم، فتحسنت احوالهم وامتدت سلطة بطريركهم على القطر المصري بأسره ولم يعد له فيه مزاحم، ثم الى النوبة والسودان والحبشة . واصبحت مصر منضمة الى شقيقتها سوريا كأحدى اعمال الدولة العربية الحديثة وتعلقت كلتاهما بخليفة مكة .

وقد اقام الخلفاء على القطر المصري عمرو بن العاص فاتحه، فعاهد الاقباط على حفظ ارواحهم واموالهم وحريتهم الدينية .

الدولة الاموية (٦٦١ ــ ٧٥٠) — وكانت الخلافة انتخابية . فلما آلت الى معاوية ابي سفيان ترك البادية الى دمشق واتخذها عاصمة للملكة الاسلامية وجعل الخلافة وراثية لاولاده ، واخذ في تولية العمال على الامصار . وكان عمرو بن العاص قد استبدل بغيره على مصر فاعاده اليها . وحاولت مكة مدة عشرين سنة استرجاع مركز الخلافة من سوريا الى ان قتل خليفة مكة بيد عبد الله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك بن مروان (٦٨٩ م) واصبحت دمشق من ذلك الحين عاصمة الدولة والخلافة معاً . وغدت مصر تابعة لها تأتمر بامرها وتقدم لخليفتها الخراج .

ولما ظفر مروان بجيش ابن الزبير حمل على مصر فصالحه اهلها و بايعوه . فعاد عنها بعد ان مكث فيها شهرين واقام عليها ابنه عبد العزيز .

ولما بويع عبد الملك ابن مروان سنة ٦٨٤ م اقر اخاه عبد العزيز المذكور عاملاً على وادي النيل وعين اثناسيوس برجوميا السرياني الرهاوي كاتباً ومدبراً له . فكان في يده الحل والعقد وظل فيها هو واولاده واحد وعشرين سنة . وابتنى كنيستين في الفسطاط (راجع عن هذا الوزير السوري مجلتنا ج ٢ ص ٧) وهو على ما نعلم اول موظف سوري مسيحي تولى الادارة في القطر المصري بعد الاسلام .

٤ — الدولتان العباسية والطولونية

الدولة العباسية الاولى (٧٥٠ ــ ٨٧٠ م) ــ وارتقت مصر الى امارة في خلافة المنصور بن محمد (٧٥٤ ــ ٧٧٥) وتولى شؤونها محمد بن سليمان من اهالي سوريا في عهد محمد المهدي (٧٧٥ — ٧٨٥) ولما قامت فيها ثورة اهل الحوف ارسل اليها الفضل بن صالح جيشاً سورياً فاخضعهم . وفي قسمة الخلافة بين المأمون والامين وقعت مصر وسوريا في حصة الاول . ولم تلبث مصر ان عصته فبعث اليها اخاه المعتصم في اربعة آلاف من الاتراك فاعادوها الى طاعته وجلبوا معهم الى سوريا جمعاً كبيراً من الاسرى المصريين واحلوهم فيها

الدولة الطولونية (٨٧٠ — ٩٠٥) — واستقلت مصر عن سوريا في عهد اميرها احمد بن طولون الذي حالما استتب له الامر اسرع لضم سوريا الى حكمه . فبارح مصر الى فلسطين حيث حشد جيوشه فخضع له حاكم الرملة . ثم تابع سيره الى دمشق فرحب به اميرها وامر ان يخطب باسمه . وبايعته حمص ايضا ثم حماه وحلب . وصدت انطاكية الابواب في وجهه فهاجمها وفتحها . ولم يعد الى مصر الا بعد ان اخضع سوريا باكملها فاصبحت تابعة لمصر من ذلك الحين . وسبحان مغير الاحوال .

وعادت مصر الى يد الخلفاء العباسيين في عهد دولتهم الثانية (٩٠٥ — ٩٣٤) فصاروا يولونها من يشاؤون الى ان انحلت دولتهم . فتجزأت الدول الاسلامية

٥ — الدولة الاخشيدية (٩٣٤ — ٩٦٨)

لما تولى امارة مصر ابو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيد اعلن استقلالها وأرغم الخليفة على ان يثبتة عليها ويملكه سوريا التي لم تكن بيده . فقام محمد بن رائق حاكم دمشق لمهاجمته في مصر فاسرع الاخشيد الى ملاقاته في العريش وقهره وعاهده على ان يترك له دمشق مقابل جزية سنوية مقدارها مئة الف وار بعون ديناراً ، على شرط ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر خاضعة للاخشيد . ولما قتل ابن رائق المذكور في دمشق اسرع الاخشيد وضمها الى ملكه مع سوريا

لكن سيف الدولة من امراء حمدان انتزعها منه مع حلب . فارسل الاخشيد كافورا بجيش قوي وهاجمه عند نهر العاصي فلم يفز منه بطائل . فهم على عبور النهر . ولما رأى سيف الدولة هذه الفرصة اغتنمها وهجم على المصريين السابحين في الماء فأسر منهم خمسة الآف واستولى على اسلحتهم وامتعتهم . فقاد الاخشيد الى سوريا جيشاً عرمرما وهاجم خصمه في المعره فلم ينل منه مأربا بل خسر فرقة الرماحة التي معه واضطر الى ان يعقد صلحا مع خصمه على ان تكون حمص وحلب وما بين النهريين لسيف الدولة وتبقى جميع الاراضي من حدود حمص الى بلاد العرب لمحمد الاخشيد .

وتأييداً لهذا الصلح زف الاخشيد ابنته الى سيف الدولة . لكن المعاهدة نقضت بعد قليل وعادت حلب الى دولة مصر الاخشيدية .

٦ — الدولة الفاطمية (٩٧٢ — ١١٧١)

لم تعمر الدولة الاخشيدية طويلاً لانها انقسمت على نفسها، فاستدعى المصريون الفاطميين. وكان سلطانهم المعز بن منصور، فارسل مملوكاً رومياً كان رباه ، وهو القائد جوهر الشهير ، فاستولى على مصر وبنى القاهرة شمال الفسطاط وابتنى لسيده فيها قصرين وجامعا ، وارسل اليه يستدعيه. فجاء ودخل القاهرة باحتفال عظيم واستوزر يعقوب بن يوسف اليهودي ابن كلس من بغداد وعهد اليه بخراج مصر وتدبيرها . ولما غزا هفتكين القسم الاكبر من سوريا واخذ دمشق سار اليه القائد جوهر فلم يتمكن منه . فجاء العزيز بن المعز بجيش كبير والتقى به في طبريه فهزمه وأسره مع عدد غفير من جنوده وقواده وأتى بهم الى القاهرة فاكرمهم واستخدمهم

واضطربت مصر في عهد المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٢) لسوء سياسته ولقيام العبيد والاتراك على بعضهم وتقاتلهم .فاستقل بدر الجمالي بسوريا واستبد ناصر الدولة مقدم الاتراك بمصر وبخليفتها . فاستنجد الخليفة بدرا المذكور على ان يوليه مصر ايضا . فقبل بدر الدين على شرط ان يرخص له باستبدال الجنود المصريين بمن يختارهم من السوريين ، ثم جاء في عصبة من رجالهم ممن اختبر شجاعتهم وامانتهم وسار بهم برا ، ولم يشعر به احد الا وقد نزل بين تانس ودمياط . ثم عسكر في قليوب وطلب من الخليفة القبض على دكوز عم ناصر الدولة، ففعل. ثم احتال وقتل الامراء واحداً بعد الآخر ، فاحتفى به الخليفة وخلع عليه الطيلسان ولقبه باميرالجيوش. ودأب بدر الدين على ازاحة المفسدين عن مصر، فاستصفى اموالهم وامن البلاد من شرهم وانعكف على تنشيط العلم والادب والتجارة واهتم خصوصا بالزراعة. فترهفت احوال الفلاحين المصريين وفاضت الخزينة بالاموال واقبل التجار الى مصر بعد ان هجروها . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وبقيت مصر عشرين سنة في بحبوحة الامن والرفاهية

لكن التركمان اغتنموا فرصة غياب بدر الجمالي فغزوا سوريا واستولوا على القدس وطبريه وما بعدها، ثم قدموا الى مصر في عشرين الفا . وكان جيشها مشغولا باطفاء ثورة نشبت في الصعيد ، فصالحهم بدر الجمالي ريثما جمع الجيش وما لبث ان هاجمهم على مقربة من القاهرة فهزمهم واحكم السيف فيهم واستخلص منهم عشرة الاف ولد كانوا في اسرهم . وعادت سوريا الى حوزة خليفة مصر

وفي عهد المستعلي بن المستنصر (١٠٩٤ — ١١٠١) استولى الارتقيون على بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من سوريا . وكان السلجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا . فاسترجع وزيره الافضل القدس لكنه لم يتمكن من استعادة سوريا لان الصليبيين انتهزوا فرصة انقسام الدول الاسلامية فنشروا جيوشهم في جميع انحاء سوريا الغربية واستولوا على فلسطين وافتتحوا اورشليم سنة ١٠٩٩ وجعلوها عاصمتهم . وما زالوا يفتتحون مدن سوريا مدة سبع سنوات حتى دخلت كلها تحت يدهم . ثم قصد ملكهم بردويل مصر فاستولى على الفرما ، وفيما هو يهم الى القاهرة داهمه المرض فعاد عنها وتوفي .

ولم يكد ينجو وادي النيل من الصليبيين حتى قام آل جزيرة صقليه وارسلوا عمارتهم الى سواحله فاحرقوا مدينة تانيس في منتصف بحيرة المنزلة ونهبوا الفرما

وكان الصليبيون بعد ان امتلكوا غزه وعسقلان قد اقتربوا من مصر، فاضطرت لضعفها ان تدفع لهم مبلغا وافرا من النقود ليكفوها شرهم

٧ — الدولة الايوبية ١١٧١ — ١٢٥٠

وكاد الصليبيون يقضون على الدولة الاسلامية لولا ظهور السلطان صلاح الدين الايوبي الشهير الذي كان في خدمة الاتابك نور الدين في سوريا . فقد ارسل نور الدين المذكور اسد الدين شيركويه لدفع الصليبيين عن مصر . واصطحب هذا ابن اخيه يوسف صلاح الدين وكان في مقتبل العمر . فوصل شركويه الى مصر وقد دخل الصليبيون القاهرة فارتحل بجيشه السوري الى مصر العليا . فتبعه الافرنج

وتجمهروا كثاراً حتى ارتاعت الجيوش السورية لمنظرهم، لكنها حاربتهم يوماً كاملاً حتى هزمتهم الى القاهرة ونازلتهم بعدئذ في مواقع شتى كانت الحرب فيها سجالاً. واستولى شيركويه على الاسكندرية واقام عليها ابن اخيه يوسف صلاح الدين. ثم جاء الصليبيون من فلسطين لنجدة اخوانهم في مصر فاضطر شركويه ان يصالحهم على ان ينسحب الصليبيون والسوريون معاً من مصر ويتركوها لحاكمها شاور مقابل مئة الف دينار يدفعها للصليبيين. فترك هؤلاء القاهرة واخذوا يعودون الى سوريا.

لكن خليفة مصر العاضد ابن يوسف كان قد تعاهد سراً مع الاتابك نور الدين وعرض عليه ثلث خراج مصر وتولية شيركويه عليها اذا نجاه من شاور الذي استبد به وبشؤون مصر. فاسرع شيركويه بجيشه السوري والتقى في طريقه بالصليبيين في بلبيس فاخرجهم منها ومن كل ارض مصر. ثم استأنف السير الى القاهرة حيث قابله الخليفة بالهدايا له ولسائر جنده. فاستاء شاور من هذه المودة لكنه رأى الجيوش السورية قريبة منه فتظاهر بالمحبة لشركويه على امل ان يغدر به سراً. فعلم يوسف صلاح الدين وبعض كبار جيش السوريين بذلك فاضمروا له ما اضمر على اميرهم وقبضوا عليه وارسلوا رأسه الى الخليفة. فسرّ الخليفة بذلك وولى شيركويه على مصر. ولما توفي اقام مكانه ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر. فأبت الجيوش السورية في بدء الامر الائتمار بامره لصغر سنه لكنه اخذهم باللين حتى استجلبهم واجمعهم على ولائه فعظم شأنه وكثرت نصراؤه

ولما توفي العاضد سنة ١١٧١ وضع صلاح الدين يده على السراي وحجر على باقي الامراء الفاطميين فانتهت بذلك دولتهم. واعلم خليفة بغداد بما فعل فسرّ هذا لانفراده بالخلافة على سائر الشرق وخلع على نور الدين وبعث اليه بسيفين اشارة الى توليته لمصر وسوريا. وخلع ايضاً على صلاح الدين الذي تظاهر بتأييد سلطة العباسيين على ان يستقل بعدئذ بمصر وسوريا.

ولما توفي نور الدين جاء صلاح الدين الى دمشق وامتلكها واستولى على حلب واعلن حكمه على مصر وسوريا. ثم استقدم من مصر جيشاً آخر ارجع به الصليبيين عن البلاد

الغربية من سوريا . وبعد ان ولى اخاه طوران شاه على دمشق عاد الى القاهرة وشاد فيها قصره الشهير في القلعة على سفح المقطم وبنى جامع اولاد عنان .

ثم بلغه ان امراء الموصل تآمروا عليه مع الصليبيين فعاد الى سوريا وحاصر حلب فسلمت، ثم استولى على الرها ورقة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران. وعسكر امام الموصل فخضعت . وعاد فنازل الصليبيين في موقعة حطين الشهيرة على سطح جبل طبريه واستظهر عليهم وأسر منهم خلقاً كثيراً ، بينهم ملكهم جفروا، وقتل اخاه ارباط . ثم تسلم قلعة طبرية ورحل الى عكا وانقذ من كان فيها من أسرى المسلمين وفرق جيشه فرقاً في انحاء سوريا واستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفوريه والناصرة وفتح قلعة تبنين ، وبعد ذلك نزل على صيدا وتسلمها وسار الى بيروت فركب عليها المنجنيق واخذها وارسل سريّة من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستولى عليها . ثم حوّل فتوحاته الى الجنوب فاستولى على عسقلان وغزه حتى اتى بيت المقدس وضيق عليها بالزحف والقتال وما زال حتى نقب سورها فسلمها الافرنج وافتدوا انفسهم . ومن لم يفتد نفسه أخذ اسيراً .وبعد ذلك عاد الى صور وقاتلها براً واستقدم اسطولاً ليقاتلها بحراً . اما الصوريون فهاجموا باسطولهم عمارة المسلمين واسروا منها خمس قطع وقتلوا كثيراً منهم . فعظم ذلك على صلاح الدين وكان الشتاء قد داهمه فوقع هدنة وعاد الى عكا . وفي الصيف قام لاتمام فتح سوريا

لكن الافرنج كانوا قد تكاثروا واستفحل امرهم ففتحوا عكا وهموا بالاستيلاء على الرمله فأسرع صلاح الدين وضربها لئلا تقع في أيديهم لكنه لما رأى الضجر قد خامر قلوب المسلمين اضطر الى عقد الصلح مع كبير الصليبيين . فنادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن أحب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى فلا حرج عليه .

ولما رجع ملك الافرنج الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار الى دمشق وكان يحبها كثيراً ويؤثر الاقامة فيها على سائر المدن . وهناك

عاجلته المنية بعد ان حكم ٢٤ سنة، منها ١٩ سنة في سوريا . فدفن فيها ولا يزال قبره قائمًا في جامعها الاموي .

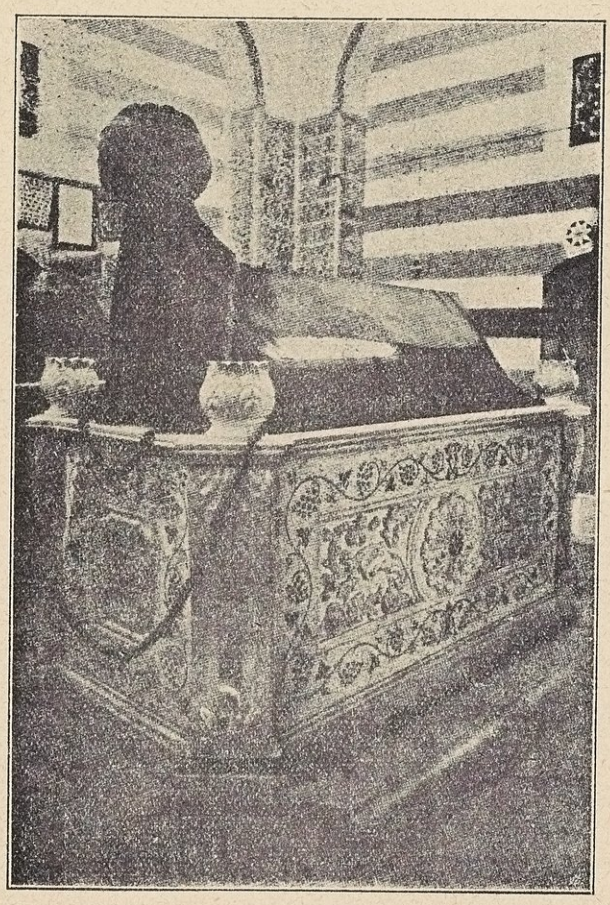

ضريح صلاح الدين الايوبي
في الجامع الاموي بدمشق

وترك صلاح الدين سبعة عشر ولداً تقاسموا سلطنته بموافقة الآراء لكن ثلاثة منهم فازوا باكبر الحصص. فالملك الافضل اخذ دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصره وبانياس وسوريا الغربية . والملك الظاهر وقعت له حلب وجميع سورية الشرقية . وتولى الملك العزيز مصر . وهكذا تكونت من هؤلاء الامراء ثلاث دول وهي الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية . وكان الملك العادل حاكمًا على الكرك

والشوبك فحاول الاستيلاء على سلطنة مصر وسوريا وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى اصبح جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه، وفي جملتهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب . وعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت ادارة سلطان واحد (سنة ١٢٠٠ م)

ولما دخل الصليبيون في عهد الملك الكامل سواحل مصر وتحصنوا في دمياط وارسلوا الاسرى الى عكا، استنجد الملك الكامل اخوته في الشام والشرق فجاؤوا لنصرته وحاربوا الصليبيين براً وبحراً وغلبوهم واسروا منهم الفين ونيف واجبروهم على تسليم دمياط والانسحاب من مصر . فطمع الملك الكامل في حصة اخويه وعاهد الصليبيين على اغتيالهما . ولما توفي الملك الاشرف خلا له الجو واصبح الوارث الوحيد لمملكتي مصر وسوريا . وجاء الى دمشق حيث توفي . فبايع المصريون ابن الملك العادل سنة ١٢٣٨ م واقاموا الاميريونس اميراً على سوريا وجعلوها تابعة لمملكة مصر

ولما نزلت قبيلة الخوارزميين حدود سوريا الشرقية عاهدهم الملك الصالح سلطان مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٩) على محاربة الافرنج وامراء سوريا الذين على دعوتهم وانجدهم بقوات . فحاربوهم واستولوا على غزه وبيت المقدس باسم الملك الصالح وارسلوا الى مصر عدداً كبيراً من الاسرى ومن رؤوس القتلى .

ثم جاء الملك لويس التاسع على رأس التجريدة الصليبية السابعة فنزل قبرس وجند عدداً من مسيحييها الموارنة، فجاء اليه اميرهم سمعان بخمسة وعشرين الفاً . فاستولى الصليبيون على دمياط وحكموها سبع سنوات وتقدموا قاصدين المنصورة. وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم من سوريا بجيش قوي فاشتد عزم المسلمين وهاجموا الصليبيين براً وبحراً فدحروهم ولحقوهم حتى فارسكور ويقال انهم قتلوا منهم ثلاثين الفاً . واسروا الملك لويس وكثيراً من ضباطه وجنوده .

ولما توفي الملك الصالح سنة ١٢٤٩ بايع المصريون الملك المعظم . لكن المماليك قتلوه وبموته انقضت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك الاولى .

الفصل السابع

المماليك

١٢٥٠ — ١٨٠٥

١ — دولة المماليك الاولى ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأهم — اصل المماليك من شمال اسيا من مقاطعة قفجاق التي كانت من المستعمرات الاسلامية . تشتت اهلها بعد غزوة المغول فأخذ تجار الرقيق يبيعونهم في اسواق الشرق كالسلع . وقد اكثر امراء سوريا وملوكها منهم ، وكانوا يدعونهم « المماليك ». وابتاع منهم الملك الصالح الفاً جعلهم في بطانته واقام منهم امراء لدولته. وكان لهم في حرب الصليبيين السابعة شأن يذكر قتلوا بعيدها الملك المعظم وبايعوا والدته شجرة الدر فاقامت كبيرهم «ايبك عز الدين» اتابكا لها. وما زال امرهم يستفحل حتى صار زمام مصر بيدهم . ولما عاهدوا الصليبيين على سلطان دمشق واطلقوا عدداً كبيرا من الاسرى المسيحيين انفذ اليهم السلطان المذكور عشرين الفا قاتلوهم وهزموهم ولحقوا بهم الى القاهرة ودخلوها. وانهزم ايبك كبيرهم بشرذمة التقت بشمس الدين قائد الجيش السوري فقتلته، فاضطر السوريون ان يصالحوا المصريين واتفقوا جميعهم على محاربة الصليبيين . ثم وقعت فتنة بين المماليك قتل فيها ايبك المذكور مع ونصب عوضه ابنه نور الدين .

وخلاصة القول ان مماليك مصر شغلوا بمنازعاتهم الداخلية عن سوريا فافلتت من يدهم ولم تستقم الا لبعضهم كالملك الظاهر بيبرس وابنه السلطان قلاوون .

الملك الظاهر (١٢٦٠ — ١٢٧٧) لما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري سلطنة مصر عصاه السوريون وبايعوا الامير سنقر حاكم دمشق. وعضدهم في ذلك التتر تحت قيادة هولاكو . فسار بيبرس الى دمشق وتغلب على التتر حلفائها فقنطت لمدينة وفتحت له ابوابها . فانتقم منها .

وهرب سنقر وتحصن في قلعة بعلبك فحاصرها بيبرس وفتحها وقبض عليه وتمت له الخطبة في دمشق وحماة وحمص وحلب وغيرها من المدن السورية . ومر في طريقه من دمشق الى حمص بقرية نصرانية تدعى قارا فنهبها وقتل منها جماعة وسبى منها نحو الف نفس رباهم المصريون بين المماليك الاتراك، فكان منهم الجنود والامراء. وما المماليك الا مجموع من اسرى وارقاء بينهم عدد كبير من المسيحيين الاروام والافرنج والسوريين

وعاد بيبرس الى يافا في ٧ مارس سنة ١٢٦٦ م ففتحها وقصد قلعة الشقيف المنيعة بين دمشق وصيدا حيث كان الصليبيون متمكنين فحاصرها ولما لم يسعه أخذها عنوة صعد الى اعلاها وكشف ماءها وذبح في قناتها عدداً كبيراً من الغنم والابقار حتى انتن الماء، فسلمت . ثم قصد بيروت وجبيل وأمّن صاحبها ، واغار على طرابلس فقطع اشجارها وغوّر انهارها وخرب اربع وعشرين قرية منها . وفيما هو في ذلك انقض عليه المسيحيون من لبنان ففر هارباً من وجههم الى حصن الاكراد ومنه زحف الى انطاكية فملكها بالسيف وقتل اربعين الفاً من اهلها واحرق كنائسها وغنم خيراتها الغزيرة .

وفي سنة ١٢٧٦ م بلغه ان امراءعبيه في جنوب لبنان كاتبوا صاحب طرابلوس الفرنجي فاعتقلهم في حبس مصر ونهب اموالهم واختطف اولادهم وحريمهم .

(راجع زيدان ج ٢ ص ١٥ والدويهي ص ١١٢ و ١١٣ وتاريخ الامير حيدر الشهابي ص ٤٤٢-٤٤٦ وتاريخ بيروت لصالح بن يحيي ص ٤٠ و ٩٥-١٠٩)

السلطان قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) — حالما جلس السلطان المنصور قلاوون على كرسي مصر بعث الامير طرطباي الى دمشق لاخماد ثورة شبت فيها ، فقبض على ملكها الكامل وقاده الى القاهرة وولى الامير حسام الدين بن لاجين على دمشق وسائر بلاد الشام . ثم شُغل قلاوون في ثورة المماليك بمصر فاعمل فيهم السيف حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالاً ونساءواطفالاً ، ومنع الذين ابقى عليهم من لبس الموشى

والزينة واستعمال الضفائر الطويلة . واستعاض عن المقتولين بالمماليك الشراكسة فجمع منهم اثني عشر الفاً .

ولما فقد ابنه عيّاً ولي عهده فكر في ان يجرد حملة على طرابلس تسلية له عن هواجسه . وكان صاحبها بيومند قد مات فارسل الى لاجين ليوافيه بالجيوش الشامية فوافاه بها، وحاصرها ثلاثة وثلاثين يوماً حتى امتلكها . فقتل من فيها وسبى ذراريهم ونساءهم وغنم غنيمة عظيمة ولم ينج من الافرنج غير الذين هربوا الى الميناء او احتموا في اعالي لبنان الشمالي واختلطوا باهله . ولا تزال سيماؤهم على بشرة سكان هذه المقاطعة. وامر قلاوون بحرق القلعة ودكها الى الارض . ثم اعاد بنيانها على نصف فرسخ منها في وادي الكنائس . وكان الافرنج قد حكموها مدة ثماني وثمانين سنة .

ثم قصد عكا لينتقم من فرنجها الذين غدروا بقافلة من المسلمين فتوفي في الطريق وخلفه ولده الملك الاشرف الذي حضر الى عكا وأخذها بالسيف وقتل من بها . وكانت حصينة للغاية . فارتعب الفرنج واخلوا له صور وصيدا وحيفا . ثم توجه الى دمشق وفتحها وكلف سنجر الشجاعي هدم قلعة صيدا البحرية ، وكان قد تعذر عليه فتحها، فقام سنجر بهذه المهمة وقصد بيروت واخذها غدراً والقى رجالها في الخندق

وجهز الملك الاشرف قائده علم الدين الداوودي وارسله الى جبيل على سواحل لبنان فاستولى على اسوارها وقلعتها وانفذ اهلها الى دمشق ومنها الى مصر . لكن السلطان اطلقهم للامان الذي اعطاه والده اياهم وخيرهم بين العود الى بيروت او التوجه الى قبرس.

وكان موارنة كسروان قد انجدوا الفرنج وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كبيراً فارسل اليهم بيدرا بعسكر جرار ، فارجعوه على اعقابه بعد ان نكلوا به وسلبوه . فاعاد ولاة الاسلام الكرة على كسروان بقيادة الاقوش سنة ١٣٠٥ وما زالوا حتى امتلكوا نواصي كسروان فاجتاحوه وخربوه واحلوا المسلمين والمتاولة في جروده وأوساطه والتركمان في سواحله ليمنعوا اهله من الاتصال مع مراكب الفرنج .

(راجع زيدان ٢٣-٢٦ والدويهي ١١٩ - ١٢٠ وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى ٤٣ - ٤٧ والمقاطعة الكسروانية للحتوني ٣٩ - ٥٠ وتاريخ حيدر ٤٦٦ - ٤٦٩)

٢ — الدولة العثمانية ١٥١٧ — ١٧٨٩

دولة المماليك الثانية ١٣٨٢ — ١٥١٧ — قلنا ان قلاوون سلطان مصر اقتنى من الشراكسة عدداً وافراً واستخدمهم في الجيش ومصالح الحكومة. فقويت شوكتهم حتى تملكوا. واولهم الملك الظاهر برقوق الذي استظهر على تيمورلنك وارجعه عن سوريا.

وخلفه ابنه فرج ولم يقوَ على تيمورلنك بل فرّ من امامه الى مصر فخلعه المصريون وسجنوه في قلعة الكرك. فهرب منها بزي درويش وجاء الى قرية بشري شرقي طرابلس فاستقبله الموارنة بحفاوة واضافوه. ثم نزل الى دير قنوبين في الوادي واقام فيه مدة ضيفًا مكرمًا. ولما رأى تيمورلنك مشتغلاً بمحاربة بيازيد التركي جمع مماليكه وغزا دمشق وفتح غيرها من مدن سوريا. ثم حضر اليه كمش بغا الحموي نائب حلب ومعه جموع وخيام واثقال كثيرة فقوي عليه فرج بن برقوق وزحف بعد ذلك على تركمان كسروان ونازلهم في جورة منطاش بزوق ميكائيل فقتل منهم الامير عليًا واخاه عمر وجماعة كبيرة ونهب زوق التركمان. وفكر فرج بعد انتصاره بضيوفه اللبنانيين فاراد مكافأتهم واقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدما على بشري وكتب له بذلك صفيحة من نحاس، وعفى دير قنوبين من الاموال الاميرية وجعل له التقدم على جميع ديورة تلك الجهات. ثم قتل خارج اسوار دمشق. واخذ السلاطين المماليك يتعاقبون على مصر بسرعة حتى لم يكن احدهم يفوز بالمبايعة الاّ يهمّ رفقاؤه بقتله.

وفي عهد السلطان الاشرف قايتباي عظم شأن محمد الثاني العثماني وانتصر على الفرس حلفاء المصريين وعلى افرنج سوريا. ولما تخاصم ولداه انتهز قايتباي الفرصة واستولى على مدينتي ترسوس وأدنه في شمال سوريا، فتصالح المصريون مع الاتراك

ثم وقع خصام بين السلطان سليم بن بيازيد واخيه كركور فلجأ هذا الاخير الى الغوري سلطان مصر فأنجده على اخيه. فغضب سليم وبعد ان افتتح مدن سوريا

استظهر على جيش مصر وفارس المتحالفين وقتل الغوري في الهزيمة . وتابع سليم مسيره الى وادي النيل ونازل فيها طومان باي . فلم يستطع المصريون بالرغم من شجاعة قائدهم طومان باي ان يثبتوا امام مدافع العثمانيين وبارودهم فتقهقروا الى الروضة . فدخل سليم القاهرة وامعن فيها نهباً وقتلاً وحرقاً وتسلم القلعة . وبعد ان فاز من طومان باي بمعلومات وافية عن محصولات مصر وخراجها وادارتها شنقه. فانتهت به دولة المماليك الثانية ، واصبحت مصر من ذلك الحين احدى الايالات العثمانية كشقيقتها سوريا .

(راجع زيدان ج ٢ ص ٤٢ — ٦٤ والدويهي ص ١٣١)

مصر وسوريا في حكم آل عثمان ١٥١٧ — ١٧٦٢ — بعد ان تم للسلطان سليم فتح مصر فكر في ان يثبت اركان دولته في الشرق الاسلامي فضم اليه السلطة الدينية وقاد الخليفة العباسي من مصر الى الاستانة فاقامه فيها وعين له راتباً . وصارت الخلافة الاسلامية الى سلاطين آل عثمان واصبحت مصر وسوريا تابعتين لهم دينياً ومدنياً . وكانوا يقيمون على كل من القطرين باشا يعينونه الى مدة محدودة ويعطونه سلطة محدودة توازنها في مصر ادارتان اخريان: الوجاقات والمماليك . فساءت احوال البلاد من جراء تفريق السلطة وتنازع اربابها عليها وتفنن كل منها في ابتزاز اموال الرعايا . واضطربت المواصلات بين القطرين المصري والسوري وضعفت حركة التجارة وانطفأ سراج العلوم وأقفلت المدارس وتبددت اسفار المكاتب وعم الخراب في كل الامبراطورية العثمانية . فكان عصر العثمانيين اظلم ما عرف في تاريخ الشرق . وزاد الضغط الديني على المسيحيين واصبحوا لقمة سائغة للحكام والجهلة من العامة ، ولم يكن لهم من مغيث . ولما ساعد فخر الدين المعني امير لبنان الشهير المرسلين الافرنج الكاثوليكيين على النزول في سوريا ولبنان وفلسطين لجأ فريق من السوريين المسيحيين الى قناصل الافرنج وتمذهبوا بمذهبهم طمعاً في حماية دولهم والفوز بشيء من المساعدة المادية . فثار عليهم رؤساء الارثوذكس اليونانيون واخذوا

يزرعون البغضاء والتعصب الديني في قلوب اخوانهم السوريين الارثوذكس ويلجأون الى البطريرك القسطنطيني ليستصدروا الاوامر في اضطهاد الكاثوليك مدعين انهم يتبعون الافرنج ويحاولون تمليكهم البلاد. فانتهز الحكام العثمانيون هذه الفرصة الثمينة ليضطهدوا المسيحيين من المذهبين الكاثوليكي والارثوذكسي ويستصفوا اموالهم. فوقع الفريقان تحت رحمتهم وزاد الاضطهاد على الكاثوليك بصفة كونهم منحازين الى الاجانب وخارجين على رؤسائهم الروحيين. فاخذوا ينزحون الى القطر المصري في اوائل القرن الثامن عشر حيث لم يكن من الارثوذكس غير الاقباط وبعض الافراد السريين الذين لا نفوذ لهم. وزادت مهاجرتهم بعد اضطهاد سنة ١٧٢٥ الشهير. وكان اغلبهم من دمشق الشام فلقبوا بالشوام، وعمّ هذا اللقب كل السوريين المهاجرين الى مصر. وسيأتيك شرح ذلك عن قريب.

٣ — علي بك الكبير ١٧٦٣ — ١٧٧٤

السوريون الكاثوليك — هجر السوريون الكاثوليك الى مصر حيث لم يجدوا حماية ولا مساعدة ادبية او مادية ولكنهم وجدوا فيها ضماناً لارواحهم وبعض الاطمئنان على مالهم وعرضهم. فرحب بهم الآباء المرسلون وخصوصاً الفرنسيسكان وكان هؤلاء قد توصلوا سنة ١٦٣٢ بواسطة قناصلهم الى ان ينشئوا لرهبنتهم في القاهرة ديراً قانونياً. وفي سنة ١٧٣٢ شيدوا لهم ديراً وكنيسة في الموسكي. وكانت رعيتهم مؤلفة من بعض التجار الافرنج وفريق ضعيف من الاقباط الكاثوليك ونفر قليل من الموارنة الحلبيين وبعض اللبنانيين. فزادت رعيتهم بوصول العنصر السوري الكاثوليكي حتى ان الروم الكاثوليك في سنة ١٨٥٠ شادوا لهم مقبرة خاصة اصبحت فيما بعد مدفناً عمومياً للكاثوليك. وكانوا قبلاً يدفنون موتاهم في مقابر الارثوذكس بمصر العتيقة كما سيأتي شرحه. ولم تلبث هذه الاقلية السورية تكثر وتنمو وتتدخل في امور التجارة مدفوعة بنشاطها وذكائها الى عهد علي بك الكبير الذي كان اول من رفع عنها الضغط الديني وقربها من الوظائف الادارية وخصوصاً المالية. وكان

الافرنج اول من مسك ناصية التجارة في مصر في حكم الدولة العثمانية فخر بهم الحكام واحلوا اليهود محلهم ، فلم يلبث جشع المماليك ان قضى عليهم . فتقدم السوريون بقلب قوي وقدم ثابتة ومسكوا بيدهم دفة مصر المالية وتوصلوا منها الى نفوذ عظيم في الادارة السياسية وتوسعوا في التجارة الداخلية والخارجية واستقلوا بها ولم تستطع الجالية الافرنجية مع ما كان لها من النفوذ ولا اليهودية مع ما كان لها من الدهاء ان تستردها منهم ، الى ان سلموها بعد خمسين سنة الى محمدعلي رأس الاسرة الحاكمة. فلم ينزعها منهم بل وكلها اليهم مع حفظ حقوق المالك الاول وتوسع فيها توسعا عظيماً كما سنبين ذلك فيما بعد . وسنتكلم في القسم الثالث من هذا الكتاب عن كيفية اشتغال الجالية السورية على حداثة عهدها في مصر في كل هذه الفروع الاقتصادية والسياسية . انما احببنا الاشارة اليها هنا قبل كلامنا علي عهد على بك الكبير ، لان هذا الرجل العظيم كان اول من فتح بابها امام السوريين فانتفع بمواهبهم ونفع بلاده وكان له من الشأن العظيم ما كان .

شخصية علي بك — كان علي بك الكبير صورة مصغرة وسابقة لمحمدعلي باشا مع بعض نقائص آلت به الى الفشل وقد تجنبها محمد علي ففاز

فقد كان علي بك الكبير كبير القلب كبير النفس كبير الطمع . دأب على الاصلاح واقر العدالة واشتد على العابثين بالامن ونشط التجارة والعلوم . وكان واسع الصدر عديم التعصب. استعان لانجاح بلاده بالعناصر الراقية بالرغم من كونها اجنبية ومسيحية ، ووثق بعقلائها وانقاد الى نصائحهم وسلمهم زمام الادارة المالية والسياسية . فسعدت مصر وانتظمت شؤونها وفاضت خزينتها . ولما رأى علي بك قدمه ثابتة في الحكم ونفوذه متسعا عمل بنصيحة مستشاريه السوريين فنزع الى الاستقلال والفتح واتفق بواسطتهم مع ضاهر العمر صاحب عكا على طرد الدولة العثمانية من بلادهما . وكاد ينجح لولا انهماكه بالملذات وتوسعه في الاسراف وتقاعده عن القيادة بنفسه . وكان تحميله الشعب ما لا يطيقه من الضرائب للقيام بنفقات حريمه

وجيشه سبباً لكره المصريين لحكمه مع ما كان فيه من المنافع . فانحازوا الى اعدائه في اول فرصة سنحت لهم. اما محمد علي فقد توسل بتنظيم البلاد واحتكار التجارة للقيام بنفقات الجيش ومشاريعه العمرانية . وكان يحول قوة الجيش ومنتوج الاحتكار الى المنافع العمومية لا الى ملذاته الشخصية وهذا سر نجاحه

تسلم السوريين لادارة مصر المالية — كان اول اصلاح اتاه علي بك بعد استتباب الامر له تخفيض الضرائب عن عاتق الشعب وتعيين المعلم ميخائيل فرحات السوري مدير الجمرك القديم ، للادارة المالية بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي الذي قتله جزاء خيانته .

(راجع زيدان ج ٢ ص ١٢٤ حيث يقول خطأً ان المعلم فرحات المذكور قبطي وسنبرهن في القسم الثالث انه سوري صميم)

وكان وزير المالية يسمى « متعهد الجمرك الاكبر » Le grand douanier لانه كان يتعهد للحكومة بمبلغ معلوم يقدمه لها سنوياً لقاء التزامه لضرائب البلاد ورسومها. ولما تسلم السوريون هذه المهمة لم يكتفوا بجباية هذه الرسوم على البضائع التي كانت تأتي من الخارج او تنتقل في داخلية البلاد بل اخذوا يشترون هذه الحاجيات و يبيعونها الى التجار بالجملة .

وكان متعهد الجمرك يعين الوكلاء عنه في المدن والثغور لجباية هذه الرسوم والضرائب ولاحتكار وتصريف هذه البضائع كما سيأتي الكلام . وكان يفضل بطبيعة الحال ان يختار لهذه الوظيفة افراداً من ابناء جنسه . وكانت الحكومة تضع قوتها تحت تصرفه .

ومن هنا نشأت اهمية هذا المركز من الجهة الادارية والاقتصادية . وقد سمحت هذه الوظيفة للسوريين الذين جاؤوا الى مصر قليلين ضعفاء ، ان يتمكنوا فيها في وقت قصير و يتخذوا لهم فيها مركزاً محترماً عالياً و يتكاثروا ، حتى انهم كانوا في اواخر عهد علي بك يبلغون نحو ثلاثة آلاف نفس في القاهرة وحدها . وقد اتبع

محمد علي باشا خطتهم وتوسع في احتكار تجارة الصادر والوارد في مصر فقبض على موارد البلاد وتمكن من ان يقوم بنفقات الجيش والاسطول العظيمة والمشاريع الاخرى العمرانية التي احيت مصر ووضعتها في مصاف الدول الكبرى وجعلتها اكبر دولة في الشرق

وحل المعلم ميخائيل الجمل محل المعلم ميخائيل فرحات . ولما غضب علي بك الكبير عليه اقام مكانه يوسف البيطار الحلبي من طائفة الروم الكاثوليك . فاستجار ميخائيل بالمعلم ابرهيم الصباغ مستشار ضاهر العمر صاحب عكا وصديق علي بك فتوسط له واعاده الى منصبه بالاشتراك مع يوسف البيطار المذكور . وبعد وفاتهما في سنة ١٧٧٤ حل مكانهما انطون فرعون الشهير كما سيأتي بيانه في القسم الثالث من هذا الكتاب

بين علي بك وضاهر العمر — كان علي بك مملوكا لابرهيم كخيا الذي قتله ابرهيم الشركسي . فلما تسلم مشيخة البلد اسرع الى قتل القاتل فثارت عليه احزابه واضطرته ان يفر من القاهرة الى عكا حيث لجأ الى الشيخ ضاهر العمر صاحبها واكتسب مودته . ثم استرجع منصبه في مصر بواسطة الصدر الاعظم صديقه واخذ يسعى في مصلحة البلاد فطهرها من اللصوص والمفسدين . وكان مستشاره كارلو روستي صديق وعشير السوريين وزوج رحمه ارملة يوسف بيطار المذكور وابنة برباره الصبحاني . وكان السوريون المحيطون بعلي الكبير يحسنون له الاتفاق مع ضاهر العمر على الدولة العثمانية والتخلص من نيرها ووشاياتها والاستقلال بشؤون مصر . وكان ابرهيم الصباغ مستشار ضاهر العمر يزين لسيده فكرة المحالفة مع علي بك الكبير والاستقلال بسوريا . فتكلل سعي السوريين في مصر وعكا بالنجاح وتعاهد علي بك وضاهر على التعاضد في هذا الغرض . واخذ علي بك يعزل ويبعد مستخدمي الملكية والجهادية ويخفض من رواتب رؤساء الوجاقات ، فيتخلون عن مناصبهم ، ويقلل من العساكر العثمانية ويكثر من المماليك الى ان ألف منهم جيشاً بلغ ستة آلاف رجل .

ففاجأته الحرب الروسية مع الدولة العثمانية ولم يكن اتم بعد استعداده، لكنه رأى الفرصة سانحة للاكثار من المماليك فجمع منهم اثني عشر الفاً بحجة مساعدة الدولة الى ان اصبح جيشه منهم ثمانية عشر الفاً. ولما وشي به الى الاستانة وارسلت هذه في طلبه قتل القابجي حامل اوامرها ورفع القناع عن مقاصده وعزل الباشا ونفاه واعلم ضاهر العمر حليفه بالامر. فاجابه ضاهر الى ذلك مسروراً وجمع اليه رجاله وضمهم الى جنود علي. فامر الباب العالي والي دمشق ان يسير اليهما في خمسة وعشرين الفاً لمنع جنود عكا من مساعدة المصريين، فنازلها الشيخ ضاهر بستة آلاف من رجاله واعادها على اعقابها.

ولما علم بذلك الباب العالي ترك مصر وسوريا لشأنهما لانه كان بشغل عنهما في محاربة روسيا. فلم يدع علي بك هذه الفرصة تفوته وزاد في تنظيم داخلية البلاد وبعث كارلو روستي مستشاره الخاص فعقد له معاهدة سلمية مع جمهورية البندقية وكلف يعقوب الارمني فعقد له مع روسيا معاهدة دفاعية هجومية.

ثم طمع الى الفتح فامتلك جزيرة العرب كما فعل بعد ذلك محمد علي. واقام على مكة ابن عمه وعهد الى محمد بك ابي الذهب ان يسير بثلاثين الفاً لاخضاع بلاد الشام والانتقام من واليها القائم في وجهه. فانضمت جنود الشيخ ضاهر اليه واستولت على غزه ورمله ونابلس واورشليم ويافا وصيدا ثم حاصرت دمشق فسلمت.

وكان الامير منصور الشهابي حاكماً على جبل لبنان وكان بينه وبين الشيخ ضاهر العمر علاقة مودة ومصلحة واتفاق ضد الدولة العثمانية مع الرغبة في الاستقلال عنها. فلما علم بدخول ابي الذهب دمشق ارسل اليه ثلاثة افراس من جياد الخيل وكتب له كتاباً اجابه عليه احسن جواب

(راجع نص هذا الكتاب في تاريخ الامير حيدر ص ٨٠٥)

وكاد يتم امر خروج مصر وسوريا ولبنان المتحالفة من يد الدولة لولا خيانة محمد ابي الذهب قائد الجيش المصري. فقد فكر في ان يجعل ثمرة الانتصار لنفسه

وحول بغتة جنوده عن دمشق الى الديار المصرية وجاء الصعيد وحالف بكاواتها وقصد القاهرة لمحاربة سيده

فسير علي بك عليه حملة في ثلاثة آلاف عهد بامرها الى مملوكه اسماعيل فانضم اسماعيل الى ابي الذهب واضطر علي بك ان يهرب الى سوريا عن طريق الصحراء وفي معيته ستة آلاف جندي وخمسة وعشرين جملاً محملة مالاً ذهبت كلها فريسة للقبائل البدوية، ووصل الى عكا في حالة يرثى لها من الفقر والمرض.

وفي اثناء ذلك ظهر امام عكا اسطول روسي وقدم لعلي ثلاثة آلاف الباني (ارنؤوطي) فضمهم الى ما كان قدمه له الشيخ ضاهر من المحاربين وارسلهم مع علي بك الطنطاوي لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد ابي الذهب. فاستولوا على صور وصيدا وقرى اخرى من سواحل سوريا كانت الجنود العثمانية احتلتها بعد انسحاب ابي الذهب. ثم قاد علي بك بنفسه ما بقي له من الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر واستولى بعد ذلك على غزه والرمله واللد. ولما كان في يافا ارسل اليه الوجاقات سراً كتاباً يلحون عليه بالمجيء لتخليصهم من مظالم ابي الذهب وكانت هذه خدعة. فعادت الى علي آماله وبارح يافا في نفر قليل من غير ان ينتظر مدد الروسيين. وما وصل الى الصالحية حتى التقت به عساكر ابي الذهب وتغلبت عليه. ومع ان المرض كان قد هدّ قواه فقد دافع عن نفسه دفاع الابطال وحمل الى ابي الذهب مثخناً بالجراح وتوفي بعد سبعة ايام.

وعادت سوريا ومصر الى ما كانتا عليه تابعتين لاملاك الدولة العثمانية، وعادت احكام وادي النيل الى مشايخ البلد وصارت طعمة لثلاثين حاكماً بدلاً من ان تكون لرجل واحد محب للاصلاح. واحب محمد بك ابو الذهب ان يستعطف خاطر الدولة فاستأذنها في المسير لمحاربة سوريا وعلى الخصوص عكا والاقتصاص من اميرها الشيخ ضاهر. فسار بجيشه ودخل فلسطين واضطر الشيخ ضاهر الى الفرار بعائلته مع من لديه من المهاجرين المصريين. فتسنى لابي الذهب دخول المدينة

واخذ قلعتها لكن المنية عاجلته فيها فعادت الجيوش المصرية الى القاهرة بجثته تحت قيادة مراد بك . ثم تولى المشيخة اسماعيل بك وكان على دعوة علي بك فعمل على اتباع خطواته وبعث الى الذين كانوا لا يزالون في سوريا من حزب سيده واستدعاهم اليه واقرهم في اماكنهم . لكن مراد بك اتحد مع ابرهيم بك وتغلبا عليه واقتسما حكم مصر وايراداتها حتى كانت حملة الفرنسويين

٤ — الحملة الفرنسوية ١٧٩٨ — ١٨٠١

كان نابوليون بونابرت قائد جيش الجمهورية الفرنسوية قد مر في البحر المتوسط وضم قسماً من سواحله . فطمع في مصر وما فيها من الخيرات والاثار التاريخية ورأى في امتلاكها تعزيزاً لدولته وارهاباً لدولة الانكليز . ففكر بانه اذا استولى على مصر وفتح قناة السويس تيسر له ان يحول تجارة الهند الى بلاده . فجاء الى الأسكندرية بحملة مؤلفة من اربعين الف مقاتل وفئة من رجال العلم مع مطبعة عربية نهبها من مدرسة البروباغنده برومية وعملة ومترجمين اكثرهم من المدرسة المارونية الشهيرة في رومية التي خربها . ومن هؤلاء المترجمين الياس فتح الله ويوسف مسابكي والاخ مشحره شامي الراهب الحلبي اللبناني .

وبعد ان دخل الفرنسويون مصر ووطدوا اقدامهم فيها اخذوا يرتبون الدواوين للفصل في الدعاوي فالفوا الديوان العام من ستين رجلا من المشايخ والتجار المسلمين والاقباط والسوريين . وكان يوسف فرحات ومخائيل كحيل العضوين السوريين فيه . واختاروا من هؤلاء الاعضاء اربعة عشر جعلوا منهم الديوان الخاص

وفي سنة ١٨٠٠ بعد انتقاض الوطنيين عليهم عادوا فنظموا الديوان على نسق مختلف عن الاول وجعلوه من المتعممين فقط . وكان الترجمان الكبير فيه القس روفائيل زخور من اسرة « راهب » والترجمان الثاني الياس فخر الشامي . قال الجبرتي

« وكانوا اذا شرعوا في جلسة الديوان يخرج اليهم الوكيل فوريه وصحبته المترجمون (واكثرهم سوريون) فيقومون له فيجلس معهم ويقف الترجمان الكبير روفائيل ويجتمع ارباب الدعاوي خلف الحاجز . فيحكي صاحب القضية قضيته ويترجمها له الترجمان » وكان القس روفائيل المذكور يتولى ايضاً تعريب منشورات الفرنسويين ويقرأها للمصريين ويبلغ ملحوظات هؤلاء وشكاويهم الى المحتلين . فكان مع رفقائه السوريين واسطة التفاهم بين الفرنسويين والمصريين كما كان شأن السوريين على اثر الاحتلال الانكليزي الاخير

وبعد ان رتب بونابرت امور مصر رغب في اكتساب صداقة احمد باشا الجزار والي عكا واحد مماليك علي بك سابقاً فبعث اليه بهدية مع احد الفرنسويين .

قال الجبرتي معاصر هذه الحوادث « وكان بصحبته انفار من النصارى الشوام في صفة تجار ، ومعهم جانب ارز . ونزلوا من ثغر دمياط في سفينة من سفائن احمد باشا . فلما وصلوا الى عكا وعلم بهم احمد باشا امر بذلك الفرنسوي فنقلوه الى بعض النقاريز ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً وامره بالرجوع من حيث اتى . وعوّق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته » وزاد الجزار على ذلك ان قتل بعثة وقعت في يده مؤلفة من تجار سوريين مصريين يبلغ عددها الاربعين . وكان فيها كاهن ماروني من اسرة قياله قادماً من مدرسة روميه . ولم يكتف الجزار بذلك بل ارسل بايعاز الدولة العثمانية جيشاً احتل العريش . فنفذ صبر بونابرت وامر باعداد حملة للدفاع عن مصر ولافتتاح سوريا ايضا . فتوجه الى يافا وهناك امر الجنرال كليبر ان يسبقه في فرقته الى عكا ففعل ، وتطوع تحت لوائه عدد كبير من السوريين المسيحيين تخلصاً من ظلم الجزار

اما بونابرت فهجم هو ومن معه على يافا فملكها وقتل حاميتها المؤلفة من اخلاط الاتراك والمغاربة والارنؤوط ولكنه اشفق على من كان فيها من اهل مصر ودمشق وحلب فأمرهم بالعود الى بلادهم .

ثم كتب الى حامية بيت المقدس بالتسليم فاجابوا انهم تابعون لولاية عكا. فقصد عكا. وكان الجزار قد استنجد بقوات صيدا ودمشق وحلب وبالدوارع الانكليزية. فابقى نابوليون الحصار على عكا منتظراً اسطوله وحول فتوحاته الى اماكن اخرى من سوريا. فاستولت فرق من جيشه على صفد وصور وطبريا واماكن غيرها حتى وصلت الدوارع الفرنسوية من الاسكندرية فهاجم عكا براً وبحراً فلم ينل منها مأربًا. ولما سمع سكان بقية جهات سوريا بفشله انحازت الى الباب العالي. وكان السير سدني سميث اميرال العمارة الانكليزية قد وزع منشورات على المشايخ والامراء في لبنان يدعوهم فيها الى الاتحاد مع الدولة العثمانية ضد بونابرت، والحقها بصورة منشور كان بونابرت اصدره في مصر يقول فيه تزلفًا للمسلمين « انه هدّ اركان الديانة المسيحية » فاحجم اللبنانيون عن مساعدته وامتنعوا عن توريد الخمر والبارود للفرنسويين. فيئس بونابرت وعاد بجيشه الى مصر وبلغ اليها بحالة يرثى لها لمشقة الطريق وتعقب العمارة الانكليزية له.

وفي هذه الاثناء نزل العثمانيون في ابي قير بقرب الاسكندرية فانتصر عليهم الفرنسويون وعادت هيبتهم في عيون المصريين. ثم سافر بونابرت الى فرنسا لاسباب وطنية، واقام مكانه الجنرال كليبر ولم يكن موافقًا له على احتلال مصر. فاتحد العثمانيون مع الانكليز عليه واضطر ان يصالحهم على ان يخرج بجيشه وامتعته بشرف. لكن العثمانيين نقضوا الشروط وأثاروا الرعاع على الفرنسويين فتحولوا على نصارى الاقباط والشوام والاروام وقتلوا منهم خلقًا كثيراً ونهبوا بيوتهم واموالهم. فعاد كليبر وحاصر القاهرة واخضعها ورسخ قدمه فيها واعاد اليها الامن. ولكنه قتل غدراً، وكان قاتله سليمان الحلبي بتحريض احد البكاوات المماليك اللاجئين الى فلسطين. فاقيم مكانه الجنرال مينو الذي جاهر بالاسلام وتسمى عبد الله وتزوج من ابنة قاضي دمياط وتزلّف الى المصريين، لكنه اعلن ان مصر اصبحت مستعمرة فرنسوية. فكرهه اهلها وعاد الانكليز وشددوا مع العثمانيين على المحتلين فقهروهم

ومنحوهم الشروط الاولى لانسحابهم. ففعلوا ورحلوا من رشيد الى فرنسا بمهماتهم واسلحتهم على نفقة الانكليز وكان ذلك في ٧ اغسطس سنة ١٨٠١ . وأذن للذين يرغبون في اللحاق بهم من النصارى، ومن كان على غرضهم من الوطنيين، ان يخرجوا من مصر. قال الجبرتي : « فخرج معهم جماعة كبيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وكثير من نصارى الشوام والاروام مثل يني و برطامين و يوسف الحموي » واحتل العثمانيون المدينة . وكانت مدة احتلال الفرنسويين للقطر المصري ثلاث سنوات واحد عشر يوماً

قال صاحب تقارير الهيئة النيابية للروم الكاثوليك في القاهرة لسنة ١٩١٨—١٩٢١ « عند حملة نابليون بونابرت على مصر انضم الى الجيش الفرنسوي فرقة من مسيحيي الشرق كاثوليكيين وغير كاثوليكيين ونظمهم الجنرال كليبر . ولما اضطر الفرنسويون الى مغادرة هذه البلاد هاجر معهم السواد الاعظم من افراد هذه الفرقة وذويهم وكان بينهم نحو خمسمائة سوري من طائفة الملكيين الكاثوليكيين ومعهم كاهنهم الخوري جبرائيل طويل فاستوطنوا مرسيليا . وفي سنة ١٨٢٢ بنى لهم مكسيموس مظلوم ، اذ كان حينئذ مطراناً ، كنيسة القديس نقولاوس المعروفة هناك الى الآن »

وكان من جملة الذين اتوا مصر من العلماء في عهد الحملة الفرنسوية مخايل نقولا ابرهيم الصباغ حفيد ابرهيم الصباغ وزير ظاهر عمر وقد اصطحبه العالم دساسي معه الى باريس . ومنهم ايضاً الشاعر نقولا الترك صاحب سيرة نابليون والمديحة المشهورة فيه ، وغيرهم سنأتي على بيانهم في القسم الثالث من هذا الكتاب .

قال الجبرتي « وبعد خروج الفرنسويين من مصر وصلت قافلة شامية وبها بضائع صابون ودخان . وحضر السيد بدر الدين المقدسي والحاج سعودي الحناوي وآخرون . وتراجع سعر الصابون والقناديل الخليلي والدخان »

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية ايضاً وبقيت مصر في نزاع بين الجنود العثمانية والمماليك والباشاوات . فعاد اليها الاضطراب اكثر من ذي قبل وتوالت عليها

الباشاوات حتى طاهر باشا الذي قتله الجنود في ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ لتأخر رواتبهم واصبحت مصر بغير حاكم . فاجمع المصريون على تولية محمد علي جد الاسرة المالكة حالاً ، فقبض على دفتها بيد قوية وحكيمة . ودفع سفينتها بين عواصف العالم المتعاكسة الى ميناء الامان والعز . كما سيأتي بيانه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

خاتمة

فانت ترى مما سبق ان مصر وسوريا من اول عهد التاريخ حتى محمد علي لم تنفصل الواحدة عن اختها الا نادراً وفي فترات قصيرة . فقد جاء الملوك الرعاة السوريون الى مصر مع مئات الالوف من مواطنيهم وحكموها ستمائة سنة . ولما عاد الملوك الى بلادهم لم يلحقهم مواطنوهم بل تبعهم الفراعنة واستولوا على سوريا مدة اربعمائة سنة . ثم طغى سيل الاشوريين على القطرين فاتحدا عليهم . ولما ظهر اليونان واستولوا عليهما اخذ ملوكهم يتنازعون الشقيقتين الجميلتين . وقد بقيت سوريا اكثر ايامها في حوزة بطالسة الاسكندرية . ثم جاءت النصرانية فدانتا بها ولحقتها الاسلامية فخضعتا لها . واصبحت مصر في اول امر العرب من اعمال دولة دمشق او بغداد او السامرة حتى استقل بها آل طولون فضموا اليها سوريا . ولما جاء المماليك فقدوا سوريا وقتاً قصيرا ثم استعادوها . وخلفهم العثمانيون فجعلوا الشقيقتين عبدتين وولوا امرهما الى باشاوات اساؤوا معاملتهما . فاتحد علي بك الكبير صاحب مصر مع الشيخ ظاهر صاحب عكا والامير منصور شهاب اللبناني على تحريرهما وجمع شملهما . فلم يساعدهما الحظ طويلا وظهر بونابرت واحب امتلاكهما فكان اقل حظ منهم وقام محمد علي فضمهما مدة عشر سنين . وسنتكلم عن نصيب هاتين الشقيقتين في الاجزاء التالية

لكننا نلاحظ عنهما في هذه المدة الطويلة الماضية ان الواحدة كانت تسعى

في ضم شقيقتها اليها كلما انست من نفسها بعض القوة كما يفعل المحب. وكان تردد ابنائهما متواصلاً في كل الاحوال السياسية التي طرأت عليهما .

اما مهاجرة السوريين الى مصر فلا نعلم بعد غزوة الملوك الرعاة مهاجرة حقيقية لهم الا في اوائل القرن الثامن عشر لما لجأ اليها الروم الكاثوليك هرباً من الاضطهاد الديني في سوريا . وكان قد سبقهم بعض افراد من الموارنة اكثرهم تجار حلبيون كما سترى فيما يلي من هذا الكتاب.

الفصل الثامن

مهاجرة السوريين الى القطر المصري في طورها الاول

١٦١٨ — ١٧٥٠

نأخذ معلوماتنا عن الاسر السورية المسيحية في مصر عن سجلات الكنائس التي كانوا متعلقين بها . ١ سجلات الآباء الفرنسيسكان المحفوظة في دير الموسكي بالقاهرة وهي تبدأ من سنة ١٦١٧ وسجلاتهم في الاسكندرية التي تبدأ بسنة ١٧٣٢ ٢ السجلات المحفوظة في دار النيابة البطريركية للروم الكاثوليك في القاهرة التي تبدأ في سنة ١٧٧٤ وهي السنة التي استقلت فيها هذه الطائفة بشؤونها الروحية عن الرهبان الفرنسيسكان الذين كانوا مولجين سابقاً بخدمتها . وهي تتألف من سجلات العماد والزواج لرعيتي القاهرة ودمياط، لان الفرنسيسكان ظلوا متوليين دفن اموات كل الطوائف الكاثوليكية الى اواسط القرن التاسع عشر كما سيأتي الكلام. وظلوا ايضاً في هذه المدة مكلفين وحدهم في الاسكندرية خدمة كل هذه الطوائف . اما السجلات المارونية فلا تبدأ رسمياً قبل سنة ١٨٢٠ التي تعين فيها القس انطون مارون البيروتي وكيلا بطريركياً لهذه الطائفة في القاهرة . وقد وجدنا في مذكراته التي تبدأ

من سنة ١٨٠١ اسماء اغلب اسر دمياط الكاثوليكية وبعض معلومات عن الطائفة السورية الارثوذكية في هذا الثغر .

لكننا شديدو الاسف لاننا لم نجد لاسر الارثوذكس السوريين سجلات نعتمدها. فقد كانوا ولا يزالون مندمجين في اليونان الارثوذكس ، وليس لهولاء سجلات قبل سنة ١٨٦٠ التي صدرت لهم فيها اوامر مشددة من الحكومة المصرية بتدوين اسماء المولودين والمتزوجين والمتوفين من رعاياهم لتعتمدها الحكومة عند الحاجة .

فيكون كلامنا في ما يلي من هذا القسم وفي القسم الثاني من هذا الكتاب، الحاوي لجدول الاسر السورية، مقتصراً على اسر الروم الكاثوليك والموارنة والسريان. ولعلنا نوّفق في المستقبل الى ترتيب جداول بعض الاسر الارثوذكسية اذا وجدنا لها ما يساعدنا على هذا العمل .

١ — الاسر السورية في القاهرة في القرن ١٧

اقدم السجلات المحفوظة في دير الآباء الفرنسيسكان في الموسكي سجل الزواج البادىء في سنة ١٦١٨ والمنتهي في سنة ١٧٥٤ . وقد نقله الاب بطرس من دراجانو Petrus Antonius a Dragano عن سجلات قديمة العهد واوراق مبعثرة .

واول اسم شرقي وجدناه في هذا السجل اسم حنه بنت عبد الحي الارمنية التي «خطبت في ٥ مايو سنة ١٦٣٤ المدعو يوسف رومانو دلاّ براتا Della Prata بحضور كاهنها الارمني . وقد صلّى عليهما خادم رعايا البندقية» . وجاء بعد ذلك في السجل نفسه ان هذه الخطوبة فسخت لاسباب لا يذكرها وان المذكورة زفت الى الخواجا يوسف الرودسي Rodiamm في ٢٨ نوفمبر سنة ١٦٣٧. واسم عبد الحي يدل على ان والد العروس من مهاجري سوريا او فلسطين .

واول ذكر لسوري صميم وجدناه في تاريخ ٢ اغسطس سنة ١٦٤٣ واليك ماقرأناه في هذا السجل بالطليانية : انا الاب ماركو انطونيو قد كلت بعد المناداة الثلاثية السيد موسى الماروني على السيدة مريم حمام Amam المارونية .

وكان ذلك بحضور الاب سلفستروس الكبوشي وجميع الموارنة الموجودين في هذه المدينة وكثيرين غيرهم . وكان الشهود المعلم يوسف (الطوراني) وموسى ؟ صليب الماروني ان» El Male' Joseph e Ms Salib ambidue maroniti

ونعرف مما جاء في هذا السجل في سنة ١٦٨٤ ان العريس هو موسى المعروف بالهدناني (اي من اهدن في شمال لبنان) وان المعلم يوسف المذكور هو على الارجح المعلم يوسف الطوراني الدمشقي [١]

ويذكر هذا السجل في يناير سنة ١٦٦٧ اكليل حنا بن موسى وغزاله المارونيين على مريم الحبشية معتوقة السيدة هيلانه امرأة زنانتي Zananti التاجر .

« وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٦٦٨ احتفل باكليل منصور بن خليل وبركه روم من بيت لحم على نصريه بنت حنا وحنه من بيت لحم ايضاً . وكان ذلك بحضور قنصل الفلاندر (بلجيكا الشمالية) . ومنصور هذا ترك الطقس الرومي وتبع طقس الكنيسة الرومانية اللاتيني »

ويأتي السجل بعد ذلك بذكر اكليل « يوسف ابن غزال من بيت لحم ، الذي يقر بالديانة الكاثوليكية الرومانية، على شهيده بنت حنا من مدينة سنبو بالصعيد في ١٢ اغسطس سنة ١٦٨٣ . وكان الشهود المعلم يوسف ابن الطوراني الدمشقي Magister Joseph filius Turani Damascenus

والمعلم اسعد ابن سرجيوس القبطي الكاثوليكي . »

« وفي ٢٨ مايو سنة ١٦٨٤ تكلل بطرس بن موسى الهدناني » [٢] Moisi Hadnani

والست حمام Set el hamam (اللذان تزوجا في سنة ١٦٤٣ كما رأيت) على مريم بنت حنا طوراني وحنه هلال الموارنة » . واسرة هلال المارونية حلبية الاصل .

---

(١) راجع المجلة السورية ١ : ٤٨٤ حيث يذكر المطران فرحات ابرهيم الطوراني وموسى الطوراني بين موارنة دمشق سنة ١٦٦٧ (٢) في اهدن اسرة تعرف للان بالمصري يقول كبراؤها ان جدهم رحل الى مصر فلقب بهذا الاسم . وقد وجدت بين اسماء واقفي دير مرت مورا باهدن على الرهبان الحالبين سنة ١٦٩٤ اسمي « انطونيوس وجرجس ولاد المصري »

« وكان ذلك بحضور بطرس ده رنان من مرسيليا Pierre de Renan Marsiliensi والسيدة حنه ده روزاريو والخواجا سانت أوثان الترجمان المرسيلي » Saint Othan

وفي سنة ١٦٨٤ ايضاً في ٣ نوفمبر تكلل الخواجا لورنسو جيويا Gioia البندقي على برباره بنت المعلم Magistri ميخائيل الشاوي وماريا روكز من الطائفة المارونية

وفي ٢٩ مارس سنة ١٦٨٥ تكلل اراكيل سلامون الارمني الكاثوليكي على سيده التي كانت رقيقة احد الاتراك المدعو ابو شوارب [١] »

ثم يذكر السجل في ١٤ اكتوبر سنة ١٦٩١ اكليل «ابراهيم بن عيسو ابو دهب؟ وهيلانه الرومية على حنه بنت يوسف جلال (هلال ؟) وماريا بنت عطيه عبده . وكان الاشبين فرنسيس الماروني وام الياس السرياني الكاثوليكي » وهو اول من ذكر من السريان . ولا نعرف هل كانت هيلينه الرومية من اسرة يونانية أو سورية لان السجل يطلق لقب Greci على الروم جميعاً سواء كانوا يونانيين ام سوريين كاثوليك ام ارثوذكس .

وفي ١٤ ابريل تكلل جبرايل بن ابي جبور وهيلانه من طائفة الموارنة على لوسيا بنت ابي داوود الارمنية . وكان الاشبين ابراهيم من بيت لحم، والاشبينة ماريا بنت يوحنا الشاوي المارونية . واسرة شاوي موجودة للآن في القطر المصري واصلها من دمشق [٢] وسترى ان سلالتي فرنسيس وجبور المارونيتين المذكورتين هنا ستمتدان في بطون القرون التالية ويتفرع منهما بضع اسر

وفي ٥ سبتمبر ورد ذكر اكليل برتولماوس ابن ام ميخائيل الماروني على مريم بنت ابراهيم وحنه بنت يوسف من بيت لحم . وبرتولماوس هذا جد اسرة برتولو Bartolo أو Bartulu التي يتكرر ذكرها في السجلات . وقد انتحلت بعدئذ

---

(١) هو جد ال الشواربي المشهورين في القليوبية

(٢) راجع المجلة السورية ١ : ٥٢٧ . ومن هذه الاسرة الاب لويس شاوي من جمعية المرسلين الافريقيين الفرنسوية واحد خدمة رعيتها في شبرا. والام سيسيل شاوي رئيسة مدرسة راهبات الدلفراند في مصر الجديدة حالا .

الطقس اللاتيني والحماية الفرنسوية .وسننشر جدول هذه الاسرة في القسم الثاني من هذا الكتاب . وفي ٢ سبتمبر تكلل ابراهيم بن موسى ؟ على ماريا بنت فرنسيس بيير الفرنسوية Beyere . وكان الاشبين الخواجا فرنسوا لا كمب Lacombe (قنصل فرنسا) والاشبينة السيدة انطوانيت جايتا Gaeta

وفي ٦ يوليو سنة ١٦٩٦ احتفل با كليل نجم الحلبي ابن مراد ولوسيا على برباره بنت ماريا ؟ المارونية . وكان الاشبين عبد الجاد والاشبينة كاترينا الرومية الكندية Candiota (من جزيرة كريت)

واخيراً في ٢٢ اكتوبر سنة ١٦٩٩ يذكر السجل اكليل بركات بن زاهيه ؟ ويعقوب على مادلينا الارمنية . وكان الاشبين الترجمان اندريا الحلبي [1] ابن بولس الماروني والاشبينة ماريا بنت بطرس وهيلانه الارمنية .

واذا فتحنا سجل الوفيات الذى يبدأ سنة ١٦٨٦ وجدنا في تاريخ ٨ سبتمبر من هذه السنة ذكر وفاة « انطون بن ابراهيم وحنه من طائفة الروم الذي دفن في المقبرة العمومية المختصة بفقراء الكاثوليك » وفي سنة ١٦٩٨ يذكر هذا السجل « دفن حنه بنت الياس وسكره الروميين من حلب لكنها كاثوليكيان رومانيان » Greci alepini ma cattolici romani

وهذا اول ذكر لسوري من طائفة الروم الكاثوليك، لان انطون التي وردت وفاته اعلاه هو اخو مريم من بيت لحم التي تكللت في ٥ سبتمبر سنة ١٦٩٥ على برتولماوس الماروني في كما ذكرنا سابقاً .

* * *

هذا كل ما وجدناه من اسماء السوريين في هذه السجلات في القرن السابع عشر . ومما تقدم نستنتج

١ — ان عدد السوريين في القاهرة كان نادراً جداً في ذلك الوقت لا بل ان

---

(١) في حلب اسرة مارونية وجيهة تدعى اندريا

الكاثوليك جميعهم من افرنج واقباط وسوريين كانوا يعدون على الاصابع . نعم ان عددهم يزيد طبعاً على من جاء ذكرهم في هذين السجلين لانهما لا يذكران سوى المتزوجين والمتوفين منهم او الذين وقفوا اشابين . ثم ان سجل الوفيات لا يبدأ الا في اواخر ذلك القرن . ومع ذلك فقوله ان جميع الموارنة كانوا حاضرين في اكليل موسى الهدناني سنة ١٦٤٣ دليل صريح على قلة عددَ السوريين في ذلك القرن لان اكثرهم كانوا موارنة .

٢ — ان وجود السوريين في القاهرة كان بطبيعة الحال سابقاً للتاريخ المذكورين فيه . اذ لا يفكر بالزواج الامن تثبت من مركزه وصمم على الاقامة في البلد النازل فيه .

٣ — ان الموارنة كانوا يؤلفون وحدهم تقريباً الجالية السورية في القرن السابع عشر اذا استثنينا ام الياس السريانية والياس وسكره الحلبيين من طائفة الروم الكاثوليك وقد ورد ذكرهما في اواخر ذلك القرن .

٤ — ان اغلب هذه الجالية من دمشق كالطوراني والشاوي وبرتولماوس، والبعض من حلب او لبنان .

٥ — ان هذه الجالية مع قلتها وحداثة عهدها كانت محترمة الجانب وعلى شيء من سعة الحال بدليل مصاهرتها ومعاشرتها لاسر القناصل والتجار الافرنج الذين كانوا يحضرون افراحها ويتزوجون منها . ثم ان لقب « المعلم » الملحق باسم يوسف الطوراني وميخائيل الشاوي وغيرهم اسوة باسم المعلم اسعد سرجيوس القبطي يدل على ان افراد هذه الجالية السورية كانوا متقدمين في وظائف الحكومة . لان هذا اللقب كان يطلق في عهد المماليك ومحمدعلي باشا على كبار موظفي الحكومة وخصوصاً مراقبي حساباتها ورؤساء اقلام دواوينها .

٦ — ان هذه الجالية كانت نازلة على الارجح في حي النصارى بمصر العتيقة بدليل مخالطتها للتجار الافرنج . وربما كان سكناها بقرب قناصلهم ، وخاصة قنصلي فرنسا والبندقية صاحبي النفوذ الاكبر في ذلك العهد، طمعاً في حمايتهم. وسنفرد لهذا الموضوع كلاماً خاصاً في القسم الثالث من هذا الكتاب .

٢ — المهاجرة في اوائل القرن ١٨ (١٧٠٠ — ١٧٢٩)

لدينا عن هذه المدة ثلاثة سجلات محفوظة في دير الفرنسيسكان بالموسكي اي سجلا الزواج والوفاة المذكوران سابقًا ،وهما لكنيسة القاهرة الجديدة .وسجل انطوش مصر العتيقة للعماد الذي يبدأ من سنة ١٧٠٢ . فنعرف من هذا السجل اسماء الاسر التي كانت قاطنة في مصر العتيقة ومن السجلين الآخرين تاريخ انتقالها الى القاهرة الجديدة اى حي الموسكي وجواره .

ونحن نقصد من سرد أسماء هذه الاسر معرفة تاريخ مهاجرة كل منها الى مصر على وجه التقريب

فنقرأ في سجل الزواج اسماء بعض الاسر الارمنية والسريانية والمارونية التي ليس لها لقب خاص تمتاز بها عن غيرها .

وقد ورد في هذا السجل اسم برتولو Bartolo (برتولماوس) بن يوحنا الدمشقي الذي تكلل في يناير سنة ١٧٠١

وفي ١ يناير سنة ١٧١٣ جاء ذكر اكليل عبد الرزاق بن عبد الحي على ترزيا بنت بطرس المدّور . وكلاهما حلبيان . وكان الاشبين ميخائيل بن نرسيس الارمني وسيسيليا امرأة فرنسيس الحلبي الماروني المار ذكره سنة ١٦٩١

وفي ٢٤ يونيو سنة ١٧١٧ زفت ترزيا بنت جبريل (جبور ؟) المارونية الى جرجس غريغوريوس الارمني الكاثوليكي . ووقف اشبينا لهما الياس بن ابرهيم الماروني التاجر الحلبي وروزا اخت العريس .

وفي هذه السنة نفسها تكلل سعد بن ابرهيم الرومي الكاثوليكي (من بيت لحم) على شلبية بنت مكرمالله القبطية . ثم جبور الحلبي على ماريا بنت فرنسيس الحلبي.

ويذكر السجل في ٣٠ ابريل سنة ١٧١٩ اكليل نصار صيدح Saidahh على كلارا بنت بطرس ، وكلاهما من طائفة الروم الكاثوليك

ثم يعود في سنة ١٧٢٤ فيذكر زواج ميخائيل بن فرحات الماروني من ماريا شاهين من الروم الكاثوليك .

اخيراً في ١٨ نوفمبر من هذه السنة يسجل اكليل الياس بن بطرس مدّور (الحلبي الماروني) على لوسيا بنت جبور الحلبية المارونية .

اما سجل الوفيات فيبدأ من سنة ١٦٨٦ وهي السنة التي بني فيها انطوش الفرنسيسكان بمصر العتيقة كما يفيدنا السجل المذكور في الصفحة الاولى منه. وكان الكاثوليك جميعهم من افرنج وسوريين واقباط يدفنون موتاهم في معبد سيدة النعم الكائن في كنيسة الاروام الارثوذكس

Cappella della Madonna della Gratia nella Chiesa delli Greci

لان حكومة المماليك كما يظهر لم تكن لتعرف رسمياً من النصارى المهاجرين سوى الاروام الارثوذكس الفائزين بفرمانات سلطانية .

واول مدفن عرفناه للطوائف الكاثوليكية في مصر المقبرة المارونية التي ذكرها السجل في سنة ١٧١٨ وكانت ايضاً ضمن مقبرة الاروام . وسنفرد في القسم الثالث من هذا الجزء مقالا خاصاً بمدافن السوريين القديمة في مصر .

واول اسم وردفي هذه السجلات من أسر طائفة الروم الكاثوليك يوسف دخاخني Dahahne الذي توفي في ٢١ يوليو سنة ١٧٠١ قال السجل « وكان روميا فصار كاثوليكيا رومانيا » « Greco fatto cattolico Romano »

ويذكر السجل في نوفمبر سنة ١٧٠٠ دفن الطفلة كاترينا بنت الياس وسكره المذكورين سنة ١٦٩٨

ثم يقول : وفي ١٧ يناير سنة ١٧٠٤ دفنت ام ميخائيل المارونية ضمن كنيسة الاروام وعمرها سبعون سنة .

ويذكر السجل سنة ١٧٠٦ دفن طفلة ليعقوب السرياني في كنيسة الاروام المذكورة . ثم في سنة ١٧٠٧ موسى ابن ام حنا الماروني وفي ٣ يوليو سنة ١٧٠٩ يسجل دفن بطرس بودي الحلبي Budi

واسرة البودي او اللبودي حلبية مارونية اشتهر منها القس توما رئيس عام الرهبنة الحلبية المارونية (١٧٣٥ — ١٧٤١)

ولا يعود ذكر للسوريين في هذا السجل الا في ٧ يونيو سنة ١٧١٧ الذي دفنت فيه حنه بنت يوسف الماروني وقريه القبطية الكاثوليكية . ثم الخواجا يوحنا شلهوب بن يوسف (المعوشي) الماروني المدفون في ١٤ يوليو من هذه السنة . والمعلم ابراهيم (الطوراني ؟) الماروني الذى دفن في ١٦ اغسطس من هذه السنة

وفي ٢٣ من هذا الشهر دفن عطا الله بن صالح بن بطرس المدوّر Modawer

ونحن نذكر تاريخ الدفن لا الوفاة ليسهل على القارىء مراجعة هذه الاسماء في السجلات . كما اننا نذكر في سجلات العماد تاريخ العماد وليس الولادة مع العلم بان اللاتين في تلك الازمنة كانو يحافظون بدقة على الشريعة القاضية بتعميد الطفل في اليوم الثامن من ميلاده واذا تأخر الوالدان عن هذا الموعد يذكر السجل عذرهما .

اما سنة ١٧١٨ فكانت شؤمًا على سكان القطر المصري اذ فتك بهم الطاعون فتكًا ذريعًا . وكانت وطأته شديدة على الجالية المارونية وهي اكبر الطوائف السورية عددًا فذهبت بمعظم افرادها . وكان للكاثوليك في هذه المدة كاهنان من المرسلين الفرنسيسكان يقيمان في انطوش مصر العتيقة فاختطفهما الطاعون مع شمامستهما حتى باتت الرعية بدون راع . فتطوع لخدمتها احد الآباء اليسوعيين ومات شهيد المروءة بعد مدة قصيرة . واليك جدول المتوفين من السوريين بين ابريل ويوليو اي في مدة الطاعون :

ابريل ملكه اخت برتولو

ميخائيل وبطرس خادما المسيو لاكومب القنصل الفرنسوي

الطفل يوسف بن برتولو ولحقته اخته الصغيرة بعد ستة ايام فدفنوها في الخندق Candak

يوسف بن عبد الرازق السرياني .

بشاره الماروني

مايو نقولا بن انطون الماروني وماريا الارمنية

كاترينا بنت فرنسيس المارونية . وفي يوم وفاتها وصلت تحليلة بطريركها لانها كانت مخطوبة لجبور قريبها في الدرجة الثانية وقد تجنزت في بيتها ودفنت بمصر العتيقة .

ثم يذكر السجل ان الاب نعمه السرياني الكاثوليكي عرّف احد الموارنة ولم يعرف اسمه لانه توفي على الأثر .

وتوفي في الشهر نفسه طفل لبطرس المدّور الماروني عمره عشرة اشهر

اغسطس وفي ١٨ اغسطس من هذه السنة توفي فرنسيس الماروني من حلب بن عبدالاسود Abdellasuad ودفن في كنيسة الارواميين مدفن الموارنة

Fu sepolto nella Chiesa de' Greci nella sepultura de' Maroniti

وفي ٢١ دسمبر توفي ماروني آخر باسم فرنسيس ايضاً .

فكثرة الوفيات من الطائفة المارونية في مدة وجيزة دلالة على كثرة عددها .

ويذكر السجل نفسه من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٢٥ ثماني عشرة وفاة من السوريين اغلبهم موارنة حلبيون . منهم في سنة ١٧١٩ ميخائيل الرومي الكاثوليكي وجرجس الماروني وطفلة لجبور ثم مريم بنت عازار ثم المعلم جرجس الحلبي .

ويذكر السجل في سنة ١٧٢٠ وفاة طفل لجرجس الحلبي وماريا جبور وانطون م (١) بن ميخائيل الحلبي ثم المعلم الياس م الذي دفن في مقبرة طائفته

وفي سنة ١٧٢١ يذكر حنه بنت عبد الرازق سك وترزيا م

وفي سنة ١٧٢٢ ماريا بنت انطون البندقي فينيتي Veneti وحنه م الحلبية

---

(١) سنقتصر على حرف م للدلالة على ان الشخص ماروني وعلى حرفي ر ك للروم الكاثوليك ورس للروم الارثوذكس وسك للسريان الكاثوليك و ق للاقباط

وفي سنة ١٧٢٣ طفلة ليوسف شلهوب (المعوشي م) ولوسيا زكو Zecco البندقية وعقبها طفل لهما باسم ميخائيل . ثم ماريا بنت عبد الرازق وترزيا . وحنام بن يعقوب وماريا .

وفي سنة ١٧٢٤ يسجل وفاة بولاكي الماروني واسمه يوسف . وقد دفن في المقبرة العمومية وليس في المدفن الماروني مما يدل على امتلاء هذا المدفن او هجره . ثم يذكر السجل طفلتين للخواجا انطون فينيتي وحنه م .

وورد في سنة ١٧٢٥ ذكر وفاة طفلة لخائيل الماروني ثم يواكيم بن يوسف شلهوب معوشي Maausci ولوسيا زكّو Zecco واخيراً يوسف بن الياس مدور ولوسيا المارونيين .

اما سجل انطوش مصر العتيقة المدونة فيه اسماء المعمدين فلا نجد فيه في الثلاثين سنة الاولى من القرن ١٨ سوى خمسة اسماء للسوريين .

ففي ١٤ اكتوبر سنة ١٧٠٢ يذكر عماد جبرايل بن فضلله ونعمه بيد الاب بونا ونتورا خادم كنيسة مريم ورئيس انطوش مصر العتيقة .

وكان عرابي الطفل المسيو فرنسوا لاكمب (القنصل الفرنسوي) واخته حنه « من رعية القاهرة الجديدة الفرنسوية »

ex loco et Parochia Gallica novi Cairi

وفي ٦ دسمبر من سنة ١٧٠٦ يذكر عماد طفل آخر للمذكورين فضلله ونعمه وكان العرابين المسيو اوربيك Orebeich التاجر البندقي ورحمه القبطية الكاثوليكية من رعية القاهرة الجديدة ايضاً .

ثم يذكر في ١ دسمبر سنة ١٧١٢ عماد بربارة بنت فتح الله ومباركة وفي ٣ مايو سنة ١٧١٥ عماد مبارك بن قزما Cosma بن الياس وماريا بنت منصور . وكان العراب المسيو مبارك لمير Benoit Lemaire الفرنسوي وماريا امرأة المسيو انطون اندره .

اخيراً في ٣ مارس سنة ١٧٢٥ يذكر السجل عماد الطفل المولود من يعقوب عبد المسيح وشلبيه بنت ابراهيم (اقباط ؟) وكانت العرابة برباره بنت قسطنطين من طائفة الروم الكاثوليك بالقاهرة الحديثة .

وما تقدم يعزز اولا ماقلناه سابقاً ان اكثرية الجالية السورية الاولى كانت مؤلفة من الطائفة المارونية واغلبهم من اصل حلبي . وبما ان اضطهاد سنة ١٧٢٥ في مصر كان موجهاً ضد الروم الكاثوليك والسريان فيترجح عندنا ان مهاجرة هؤلاء الموارنة الحلبيين كانت للتجارة .

ثانياً — ان مخالطة هذه الجالية الاولى للتجار الافرنج وقناصلهم ووقوف هؤلاء كعرابين او اشابين في حفلات عمادها وأكاليلها دلالة على يسرها ووجاهتها. يؤيد ذلك ايضاً ورود اسماء كثيرين مع لقب معلم كالمعلم ابراهيم الماروني سنة ١٧١٧ والمعلم جرجس الحلبي سنة ١٧١٩ والمعلم الياس الماروني سنة ١٧٢٠ المذكورين في سجل الوفاة .

ثالثاً — ان قلة ذكر افراد هذه الجالية في سجل عماد انطوش مصر العتيقة ومجيء اغلب العرابين المذكورين في هذا السجل من رعية القاهرة الجديدة يدلنا على ان معظم السوريين كان قد انتقل في اوائل القرن الثامن عشر من مصر العتيقة الى القاهرة الحديثة Novi Cairi اي الى احياء الموسكي والخليج وما جاورهما . وهذا دليل آخر على سعة حال هذه الجالية وسعيها وراء الاعمال التجارية الرابحة التي انتقل مركزها في هذه المدة الى قلب المدينة الحاضرة .

٣ — المهاجرة الى القاهرة من سنة ١٧٣٠ الى سنة ١٧٥٠

ان الاضطهادات الدينية التي اشتدت في سوريا وخاصة في مدينتي دمشق وحلب على الكاثوليك عامة وطائفتي الروم الكاثوليك والسريان خاصة في اوائل القرن الثامن عشر دفعت افرادهم الى هجر البلاد المحبوبة والالتجاء الى القطر المصري

حيث سبقهم بعض مواطنيهم . ولا بد ان يكون للمرسلين الافرنج في القطرين المصري والسوري، وعلى الاخص الفرنسيسكان خدام الكاثوليك في مصر، يد في دفع تيار هذه المهاجرة مع بعد المسافة بين القطرين . فكنت تراها في بدء امرها كالسيل في بدء الامطار تنحدر رويداً رويداً من هاتين المدينتين كجدولين متجهة نحو القطر المصري . وقد ينضم اليها في الطريق بعض النازحين من المدن الصغيرة كحمص وطرابلس وصيدا وعكا ، حتى اذا اقتربت من حدود مصر تجمعت كلها وتدفقت الى وادي النيل . فمنها وهو القليل كان يتجه شمالا نحو دمياط ورشيد والاسكندرية والبقية وهو القسم الاكبر كان ينهمر نحو القاهرة عاصمة البلاد ومركز التجارة الاكبر فيها . ولما اشتدت عواصف الاضطرابات والاضطهادات في مدن سوريا في اوائل القرن الثامن عشر اصبح هذا السيل عرمرمًا وتدفق بقوة مجتازاً مئات الاميال التي تفصل بين القطرين .

وكان الروم الكاثوليك يؤلفون القسم الاكبر من هؤلاء النازحين، لاتجاه الاضطهاد ضدهم ونجاح افرادهم في القطر المصري . فمن سنة ١٧٣٠ فصاعداً ترى اسماء أسر هذه الطائفة ترد تباعًا وبكثرة في السجلات حتى اذا جاءت سنة ١٧٥٠ اصبحوا الاكثرية الغالبة بين الطوائف الكاثوليكية . ولما كانت دمشق الشام المصدر الاكبر لهذا السيل اطلق المصريون اسم « الشوام » على سائر السوريين وخصص السوريون طائفة الروم الكاثوليك بهذا اللقب وهم يعرفون به الى الان. وكان «شيخ الشوام» في ذلك العهد يدعى لطف الله . وقد توفي في سنة ١٧٧٢ في سن السبعين . ويقول سجل الوفاة انه « رئيس وشيخ كل الدمشقيين » Lotfialla caput omnium Damascenorum

واول اسم نجده في سجل الزواج بعد صيدح (المذكور سنة ١٧١٩) اسرة البورصلي تكلل منها ابراهيم في ٧ مايو سنة ١٧٣١ وتوفيت طفلة للمذكور سنة ١٨٣٤.

ولكنه ليس بسوري صميم [١] مثل نعمه بن قسطنطين (قسطندي) الذي تكلل في ١٥ سبتمر سنة ١٧٣١ على افراسيا بنت بطرس (المدوّر) الماروني الدمشقي . وقد وجدنا ذكراً لشقيقة المذكور كاترينا بنت قسطنطين كعرابة في عماد ابن يعقوب عبد المسيح في مصر العتيقة (٣ مارس ١٧٢٥) قال عنها السجل انها من سكان القاهرة الجديدة . وجاء في السجل ان « دمتري بن الياس الدمشقي كان اشبيناً لنعمه قسطنطين » المذكور .

فتكون اسرة دخاخني اول من ورد اسمها في السجلات من طائفة الروم الكاثوليك (و ١٧٠١) [٢] وتليها اسرة صيدح (ز ١٧١٩) ثم قسطندي (ع ١٧٢٥) و بورصلي (ز ١٧٣١) وعفّانه (و ١٧٣٤) .

ونقرأ في سجل الزواج اسم ابرهيم الرومي الذي تكلل على احدى القبطيات سنة ١٧٣٢ ، وكان منصور وعبدالله الدمشقيان شاهدين له . وورد في السنة نفسها ذكر نعمه بن جرجس بخشوم رك من دمشق ثم اكليل فضول بن منصور المذكور .

ويذكر السجل لطائفة الموارنة بين سنة ١٧٣٠ و ١٧٣٣ سبع وفيات . ويذكر لهم سجل الزواج بضعة اكاليل اهمها اكليل الياس الماروني الحلبي ابن نعمه (لبوس) ورحمه على ارملة اورشليمية في ١٧ نوفمبر ١٧٣٢ . ثم في ١ فبراير ١٧٣٣ يذكر اكليل جبرائيل اخي المذكور على مرغريت بنت سركيس الارمني الارثوذكسي من بلاد العجم . قال السجل « هذه كانت رقيقة بين ايدي الاتراك (المماليك) فافتداها جبرائيل واعتقها وادخلها في المذهب الكاثوليكي ثم اتخذها زوجة له . وكان اشبينه جناب الوجيه الامثل illustrissimus المسيو فرنسيس لاكومب (قنصل فرنسا في مصر)

---

(١) لان اصله من بورصه في الاناضول

(٢) رغبة في الاختصار سندل بحرف و على سجل الوفاة وحرف ز على سجل الزواج وحرف ع على سجل العماد والتثبيت وحرف ا على سجل الارتداد .

وفي السنة نفسها زفّ ابراهيم البورصلي المذكور اعلاه صبيةً ارمنية اسمها ماريا كان قد تبناها ، الى يعقوب الماروني الحلبي . والارجح ان العروس معتوقة . ويذكر السجل في هذه الحقبة اكاليل كثيرة بين ارقاء كان الكاثوليك يعتقونهم ويزوجونهم من بعضهم وربما اتخذوا المعتوقات زوجات لهم فيرفعوهن من ذل العبودية الى مقام شريكات حياتهم . وكان هذا العمل مثالا مؤثراً على قلوب ابناء ذلك العصر المظلم عصر الانانية والقسوة والاستبداد. وسنفرد في القسم الثالث من هذا الجزء مقالا خاصاً عن هذ العمل الصالح في كلامنا على حالة السوريين الأدبية .

ويذكر سجل الزواج اكاليل بعض سريان كاثوليك لا لقب لهم كمنصور ٣ اغسطس ١٧٣٢ وعبد النور ١ مارس ١٧٤١ وعبدالله وبطرس ١ فبراير ١٧٣٩ كلهم جميعهم الاب نعمه السرياني باذن خوري الرعية الفرنسيسكاني . ويذكر ايضاً السجل اسماء بعض الارمن كلهم الاب نقولا الارمني في ١ فبراير ١٧٣٩ .

اما سجل الوفيات فيذكر في ١٧٣٤ وفاة طفلة ليعقوب عفانه الحلبي ثم وفاة طفل لموسى سكر. م ١٧٤٠ واخرى لزكريا كاليمرا .م الحلبي . ويأتي في سنة ١٧٤٢ بذكر اربع وفيات من اسرة بوغليوم رك يكتبها Jugalium

ومن هذه السنة يكثر ورود ذكر الاسر السورية فترى اسماء اجدادهم تظهر الواحد تلو الآخر . ففي سجل الوفيات نجد اسماء منصور جباره الدمشقي رك ١٩ فبراير ١٧٤٤ وبطرس كلسلي رك ومخائيل مسره رك حلبي ٢٢ ابريل ١٧٤٦ الذي كان له مدفن خاص بناه لاسرته . ويأتي بعد ذلك اسم اسرة لاونديه رك ١٧٤٦ وعبد الله شيخ الحاره الحلبي رك ١٧٤٧. وفي ١٢ مايو سنة ١٧٤٨ يظهر اسم درّه رك وهي اسرة دمشقية تشغل سلسلتها بضعة اعمدة كما سترى . وفي ٣٠ ابريل ١٧٤٩ يرد اسم اسرة عيسى رك ثم في ٣١ يوليو من هذه السنة نقرأ اسم جرجس بكتي المتزوج من برباره بنت جرجس دره . وهذه الاسرة ايضاً من اكبر واوجه الاسر السورية القديمة جاء جدها ابو جبران الدمشقي في بدء المهاجرة وتوفي سنة ١٧٦٢ في سن الثمانين.

اما سجل عماد مصر العتيقه فلا يذكر بين سنة ١٧٣١ و ١٧٥٠ غير اسم ميخائيل مسرة الوارد اعلاه صاحب المدفن بمصر العتيقة . ثم اسرة حوا الحلبية المارونية [١] وكلتاهما مذكورتان سنة ١٧٤٨ . وهذا يدل على ان السوريين كانوا في ذلك العهد قد هجروا حي مصر العتيقة الى القاهرة الجديدة .

لكن سجل الزواج مشحون بذكر السوريين في هذه المدة . ففي سنة ١٧٤٣ يرد ذكر جرجس بربرك وجبرائيل قوّاس رك من حلب ، ولهاتين الاسرتين جدولان طويلان ، وعبد الله لقمه رك حلبي. وبعد ان يسجل اكليل افراد كثيرين من طائفة الروم الكاثوليك يقول « ان الخوري يوحنا قسطنطين المرسل الرسولي ومن طائفة الروم الكاثوليك (وتلميذ مدرسة البروباغنده في رومية) كلل باذن من خادم الرعية (الفرنسيسكاني) يوحنا الرومي الذي كان رقيقاً اعتقه بطرس كاسلي الحلبي ، على مريم التي كان اعتقها وتبناها رزق الله الماروني الحلبي » وتجد في هذا السجل امضاء الخوري يوحنا المذكور . وهو اول كاهن من طائفة الروم الكاثوليك ورد ذكره في هذه السجلات . ونرجح انه من اسرة قسطنطين او قسطندي المذكورة اعلاه سنة ١٧٢٥ . وفي ٧ فبراير ١٧٤٥ قام الخوري يوحنا المذكور باكليل اسرائيل بن ارميا وماريا رك حلبية على كريا كا . وقد ورد في سنة ١٧٥٤ ذكر ماريا بنت اسرائيل وكريا كا جمبلاط فيكون اسرائيل المذكور من اسرة جمبلاط الدمشقية الشهيرة التي ذكرتها السجلات القديمة اكثر من سبعين مرة . وكان سمعان احد افرادها معدوداً في ذلك العهد من اكبر تجار مصر كما سترى .

وفي سنة ١٧٤٦ نقرأ اسم اسرة سمسار المارونية

وفي سنة ١٧٤٨ بعد ان يذكر السجل اكليل عبدالله بربر يسجل زفاف

---

(١) جاء القس جبرائيل حوا احد مؤسسي الرهبنة اللبنانية الى مصر سنة ١٧٠٧ في مهمة لدى بطريرك الاقباط الارثوذكس كلفه اياها الحبر الاعظم كما سيأتي شرحه في كتابنا « اللالي في حياة المطران عبد الله قرألي » الذي باشرنا نشره في المجلة

جرجس ورش الدمشقي رك الى الماس بنت لطفي سيده . وكان الشاهد ابرهيم شاهين الحلبي . ويأتي بعد ذلك ذكر زواج عبدالله الكلداني الحلبي الماروني . وقد وقف اشبيناً له يوحنا سوسه . واسم سوسه بالكسر حسب اللفظ السوري اصبح في مصر سوسَه بالفتح حسب اللهجة المصرية ومنها انتقل الى صوصه كما يلفظ الآن . وينسب السجل هذه الاسرة اولاً الى اللاذقية ولكنه في سنة ١٧٥٢ يقول انها دمشقية وربما كان ذلك سهواً منه والاصح انها من اللاذقية من حيث يكثر تصدير السوس

وفي سنة ١٧٤٩ يرد في هذا السجل اسما اسرتي سركيس الحلبي موحكيم رك من دمشق وفي اكتوبر من السنة نفسها يظهر اسم اسرة زنانيري الشهيرة بذكر اكليل جرجس زنانيري على مريم بنت القسيس ابرهيم فرعون . ويقول السجل ان الاسرتين من دمشق ومن طائفة الروم الكاثوليك . وسيرى القراء ان اسرتي زنانيرى وفرعون ـ قسيس كانتا في ذلك العهد من اوجه واكبر الاسر السورية . وقد تسلم الكونت انطون فرعون عهدة الجمارك المصرية بعد يوسف بيطار ومخائيل الجمل فجمع في اقل من ثلاث سنين ثروة طائلة وبلغ جاها لم يبلغه سوري في القطر المصري قبله . وكان من اكبر مؤيدي مواطنيه ومعززيهم وقد قلدهم اكبر الوظائف الاميرية وبنى لطائفته قبل هربه الى اوربا مقبرة معروفة باسمه الى الآن . وسنتوسع في مكان آخر بذكر اعمال هذا الرجل

وقد وجدنا في سجل عماد القاهرة الجديدة سنة ١٧٤٩ اسماء ماريا بنت صفر وجرجس المنصوري الدمشقي ويوحنا ابن حجار وميخائيل شاتيلا الدمشقي وسابا محفوض الحلبي وتقولا الرواس . كل هؤلاء من طائفة الروم الكاثوليك . ويقول السجل عن تقولا الرواس ان « ابنه تعمد سراً خوفاً من الروم الارثوذكس لان رواس من كاثوليكيي مدينة الرشيد الحديثين » اي الداخلين حديثاً في الكثلكة

الفصل التاسع

تدفق المهاجرة السورية الى القطر المصري

١٧٥٠ - ١٧٧٤

١ — المهاجرة الى القاهرة من سنة ١٧٥٠ - ١٧٥٩

لم يعد يسعنا ذكر كل اسرة بمفردها لاشتداد المهاجرة السورية بعدهذا التاريخ الى القاهرة والاسكندرية و بقية المدن المصرية فنكتفي بذكر اسم رب العائلة حسب تاريخ وروده في السجلات لاول مرة ولا نذكر الا الاسماء غير الواردة سابقًا

١٧٥٠

سجل الوفاة — مارس. الياس سرياني رك . ابراهيم صباغ رك

سجل الزواج — مايو . توما بن داود الشاحوط رك من دمشق

نوفمبر . يوحنا عبد النور رك من حلب

١٧٥١

سجل العماد - اكتوبر . جرجس ابن جبرائيل صيداوي الدمشقي . نعوم سامي رك . يوسف حطب رك

سجل الزواج — يناير . نقولا حمصي . نعمه كرابيت الشامي الارمني .

فبراير . ديمتري قمور رك نعمة الله شاهين الدمشقي (وهو غير شاهين الحلبي) . لطفي نمير

اكتوبر . يوسف مخشن رك من دمشق

١٧٥٢

سجل الوفاة — ابريل توما كحاله رك حلبي . جبرايل مطر رك دمشقي

موسى كتير الغلبه رك دمشقي

سجل الزواج – يناير . يوحنا عنحوري . عبد العزيز خير
يوحنا سبع الدمشقي . بركات صبحاني الدمشقي
ابراهيم سكاكيني. هذه الاسر كلها من الروم الكاثوليك
فبراير . عبد اللطيف قطه رك . لوقا خوكاز ارمني
اسطفان الصايغ الارمني .
سبتمبر . يوسف ابن دايه رك . يوحنا سكاكزان ارمني
نوفمبر . موسى القصير

١٧٥٣

سجل الزواج – فبراير . جرجس تيطي الحلبي الماروني . تسمى بعدئذ فيدال
يوليو . يوسف بن شكري رك .
سجل عماد مصر العتيقة – مريم فريجي . موسى دبه . جبرايل فرزلي كلهم رك

١٧٥٤

سجل العماد – اكتوبر . حنه ام سابا الحلبية
يونيو . سليمان ابو ضاي . نقولا سمن . موسى الخياط
دمتري النسر . نقولا لمس . يعقوب زبال
نعمه شحيره . حنا دوماني . بولس فرحات
موسى معري . كلهم رك

١٧٥٥

ذكر الدبس [1] نقلاً عن مقالة نشرها في مجلة الشرق حضرة الخوري الاسقفي جرجس منش « ان توما احد اولاد الشاعر نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي الرومي الكاثوليكي سافر الى مصر سنة ١٧٥٥ وكتب رحلته من حلب الى اللاذقية فبيروت فمصر . »

---

(١) تاريخ سوريا ج ٨ ص ٤٨٤

سجل العماد — يناير . حنه بنت عبد المسيح . جرجس مدبر من حلب .

ميخائيل مصابني

مارس. جرجس خوري

يوليو . حنا سجق . كلهم رك .بطرس سقيفه م .

سبتمبر .نقولا الترّابي . الياس ابو نصار . رجينا بنت قمر

نوفمبر . يوحنا غزال . توما الساعاتي . كلهم رك

سجل الوفاة — يناير . بولس مخيشاتي رك .

سجل الزواج — يوليو . بشاره ابن مانوك الارمني . ميخائيل بن انطون الجبيلي م

اكتوبر . جبرايل دبوس . مرغريت جربوعه الحلبية

كلاهما رك

١٧٥٦

سجل الوفاة — ابريل. جرجس كرباج رك وهي غير اسرة كرباج الحلبية المارونية

سجل الزواج — مايو . عبد الله كرمه . عبود برلام . عبد الله اتناس كلهم

حلبيون ومن الروم الكاثوليك

سجل العماد — يناير . موسى فرح رك

فبراير. موسى سكر سك . وهي غير اسرة سكر المارونية

ابريل . جرجس خبيه من دمشق .

مايو . عبود طياح السوق . كلاهما رك

يونيو . يوسف سقال ارمني

اغسطس . شكري شقيه رك

سبتمبر . جورجي المنتوره

١٧٥٧

سجل الوفاة — اغسطس . شكري المملوك ر ك

سجل الزواج — فبراير . منصور جيعه ر ك من دمشق

سجل العماد — يناير . موسى سليمان ر ك

فبراير . حنا توتل م [1]

مايو موسى الفار ر ك . موسى وحنا بطاس ر ك

يونيو ميخائيل بن منصور ر ك

١٧٥٨

سجل الوفاة — مايو . جرجس خباز ارمني . موسى فقاس ر ك

يوليو . الياس اصفر ر ك . مريم بنت اسحاق ر ك

سجل العماد — يناير . نقولا ليان ر ك

اغسطس . زكور مقيساتي ارمني . حنه بنت مبارك حلبيه . ماريا

بنت بركات ر ك من حلب . ماريا بنت القاضي .

ر ك حلبية

١٧٥٩

سجل الوفاة — مايو . ميخائيل رزوقي الحلبي ر ك . نقولا زاخر ر ك

سجل الزواج — يناير . ميخائيل عرق ر ك . مريم بنت الخوري اسحاق

(الصايغ) ارمنية

فبراير . موسى رطل ر ك . حنا عرقجي ر ك

مارس . جبرايل قواس ر ك حلبي . جبرايل رزق الله عبده ر ك

سوسنه بنت شماسيه ر ك من حلب

سجل العماد — يوليو . ابرهيم صباغ ر ك حلبي . نقولا سمينه ر ك بولس بهنـ

---

(١) هذه الاسرة موجودة للان في حلب

سك من حلب

اكتوبر . ابراهيم شربيني ر ك

٢ — المهاجرة الى القاهرة من سنة ١٧٦٠ — ١٧٧٤

اشتد في هذه المدة تيار مهاجرة السوريين الى القطر المصري حتى ان سجل العماد ذكر لهم في سنة ١٧٦٠ نحو ستين عماداً لاطفالهم اغلبهم من الروم الكاثوليك، ما يدل على وجود نحو مائتي اسرة منهم في القاهرة وحدها .

١٧٦٠

سجل العماد — ابريل . ترزيا بنت شاحوط الفتال ر ك من حلب

يوليو . مريم شلبي

اغسطس . يوسف قصبجي الماروني

سبتمبر . ماريا بنت حماصني

نوفمبر . حنا ظاهر سك . جورجي منصور خوري ر ك من حلب

سجل الوفاة — مارس . جرجي كجك ر ك من حلب

سجل الزواج — فبراير . ابراهيم لباد ر ك . جبرايل فارس زوج سيسيليا موصلي ر ك . رزق الله بيطار ر ك من حلب زوج لوسيا عيروط ر ك حلبية . سليمان غربول ر ك

اكتوبر . هيلينه تلجه ر ك

١٧٦١

سجل الزواج ميخائيل شاهين سك (وهو غير شاهين من طائفة الروم الكاثوليك)

نوفمبر — موسى هواويني ر ك زوج مريم بنت شبطيني (م)

سجل العماد يناير — منصور جهامي ر ك حلبي . رزق الله عبود . ماريا بنت فريج م

مارس ـ تقلا كحيل . حنه بنت زمرود (ارمنية من حلب)

يونيو — يوحنا كساب ر ك

يوليو — ابرهيم سجين

اغسطس ـ عبد الله عصفور ر ك . رزق الله مظلوم (ر ك من حلب)

سبتمبر — ميخائيل جمل (ر ك) موسى زغيب (ر ك)

سجل التثبيت — يوحنا سنجق . يوحنا ساسي . توما بن تودري

١٧٦٢

سجل الوفاة ـ اغسطس . ابراهيم سعاده من دمشق ر ك .

« الزواج ـ يناير . مخائيل جبران

فبراير . ابراهيم قمر . جرجس صوايا

« العماد ـ مايو . يوسف ناشر ر ك . جرجي منصور ر ك

يونيو . يوحنا نشو

نوفمبر . نعمه ابراهيم القصير

١٧٦٣

سجل الارتداد ـ اروتين انجرلي

« الزواج ـ موسى سعد . يوسف شاوي

« العماد ـ يناير . ابراهيم شدياق سك

ابريل . ميخائيل طحان

دسمبر . موسى مكحله

١٧٦٤

سجل العماد ـ يناير . يوسف مطران ر ك .

يونيو . بطرس ساعاتي ؟ ر ك

اغسطس . ابراهيم حموي ر ك .

سبتمبر . نعمه قصاب رك

اكتوبر . ميخائيل صعب

١٧٦٥

سجل الوفاة ــ فبراير . نعمه كيلون (من حلب)

ابريل . يوحنا فريجي رك من دمشق

« الزواج — مايو . يوحنا صابونجي

اغسطس . مريم بنت زلعوم

سبتمبر . الياس ديب

١٧٦٦

سجل الوفاة — فبراير . انطون جاموس رك حلبي . جرجس مرشاتي

ماري مسك

وفيات بالطاعون . مايو . حنا جرجس جنجول . انطون شرقي . ابراهيم دهان

يوليو . عبد الله نقولا عرقوبه من دمشق . آجيا لمبايه رك حلبية

سجل العماد — يناير انطون الحريري

مارس . موسى ابو الروس

مايو . ميخائيل حنيكه . موسى بيلونه

سبتمبر . الياس المدبر رك من حلب . ميخائيل الحكيم

سجل الخطبة — عبود شوقي . ابراهيم صوفجي ارمني سركيس عطاالله م

« الزواج — انطون دوده . حنا شقرق . ميخائيل داوود

١٧٦٧

سجل الوفاة — ماريا فياسه رك حلبية . امرأة فرنسيس درويش من حلب

نعمه الشعير رك من دمشق . ميخائيل سيفي رك من حلب . ميخائيل

دقاق . عبد الله مسكاوي دمشقي . فرج الله كعكواتي . ميخائيل

دبوس .

سجل العماد — ماريا بنت ناردي . يعقوب وجرجس عجميه . انطون شاماتي . حنا دلال

١٧٦٨١

« الوفاة — انطون عبود . موسى دبابه . ماريا بنت عبد المنعم حلبية . جبران مظهر . انطون سمينه سك . درويش شيبه رك . فرج الله قهوجي .

ترزيا بنت العريض

« الخطبة — يوسف دبانه دمشقي رك .

« الزواج — موسى كليله . يعقوب العنتابلي . لوسيا بنت مجنونه . جبران ابو تيران

١٧٦٩

سجل الوفاة — يوسف ميخائيل بيطار رك من دمشق (غير بيطار الحلبي)

فروسينا شبيعه . نعمة الله بوابيجي . رزق الله قصابجي رك

(غير الماروني) ترزيا بنت حداد . موسى خراط ديار بكرلي

« الزواج — حليف العسيريني . ابراهيم النوحي .

١٧٧٠

سجل العماد - بطرس شقيه . شكرالله الزامل ماروني حلبي . يوسف الابيض رك

حنا النوحاني رك . ابراهيم جانجي ارمني . موسى الخياط . نعمة الله

تيناوي رك . جرجس مقليه .

« الزواج — يوسف ضرير . مرتا بنت صيدناوي رك . موسى نخله جرجس

نقاش . يوسف مرشد .

١٧٧١

سجل العماد — جرجس ديب العريف رك . صوفيا ظاهر . موسى نحاس

« الزواج — عبد الله جداوي سك . بطرس القبرشي . جرجس نقاش سك .

١٧٧٢

سجل الوفاة — يوحنا شياطي . يوسف ماروني رك من دمشق موسى . عيسى .

نقولا مقشه رك دمشقي

سجل العماد — جرجس سليمان . يوسف خضري ر ك . يوسف مباركجيه . رزق الله دبه . نعمه رزقي . جرجس البسيريني . بطرس الياس .

« التثبيت عبد الله نعمه بيروتي م . ميخائيل مستكي . الياس ظريفه الياس أنكيري الحكيم ماروني . عيسى اصبهان مجوزه .

« الزواج — مومى العسكري .

١٧٧٣

سجل الوفاة — يوحنا مسديه . يوحنا مقصود ر ك . شكري قندلفت . نهايت كبه سك . نعمه الشاعر .

٣ — المهاجرة السورية الى الاسكندرية من سنة ١٧٣٢ — ١٧٦٠

تبتدىء سجلات الاسكندرية في سنة ١٧٣٠ وهي محفوظة في دير الآباء الفرنسيسكان في كنيسة القديسة كاترينا . وسنوفي الكلام فيها في القسم الثاني من هذا الكتاب . وقد تأخرت مهاجرة السوريين الى هذا الثغر عن القاهرة لانه لم يكن ذات اهمية الا بعد ان اهتم به محمد علي باشا وجعله ميناء القطر المصري خاصة للبضائع الواردة من اوربا والصادرة اليها . فاخذت اهمية ثغر دمياط في الهبوط ولم يعد يستخدم سوى للتجارة مع فلسطين وسوريا

واول اسم لسوري نجده في هذه السجلات اسرة غزال الارمنية الحلبية . فقد ورد في سجل الوفاة اسم جرجس بن غزال الارمني الحلبي الذي توفي بالطاعون في سن الثلاثين في مستشفى الاروام في ٢٠ مايو سنة ١٧٤١ . وفي اليوم نفسه توفي اخوه موسى ودفن بالقرب منه في مدفن القديسة كاترينا . ويذكر هذا السجل ايضاً وفاة عازار الارمني الكاثوليكي الذي دفن في مقبرة القديس مرقس القبطية .

واليك اول ذكر لسوري صميم ورد في سجل العماد: «في ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٤٩ تعمدت مريم بنت يوسف ابن عجيل الرومي الكاثوليكي ومريم بنت قربه المارونية وكلاهما من حلب »

وجاء في هذا السجل في سنة ١٧٥١ ذكر عماد مريم ابنة جرجس الرومي الكاثوليكي من قبرس ومريم الحلبية الكاثوليكية . ويذكر سجل الزواج حضور يوسف بكتي في زواج احد الافرنج في ١٤ نوفمبر من سنة ١٧٥١ المذكورة .

وذكر سجل العماد في ١٠ مايو سنة ١٧٥٣ الياس صابات الدمشقي . ثم في ٢٨ سبتمبر ورد فيه ذكر عماد الطفل ميخائيل بن الوجيه برناردو كابرارا قنصل البندقية وحضرة الكونتسا مرتا من اسرة عجوري الحلبية . وهذه السيدة السورية الشريفة مذكورة ايضاً في سنتي ١٧٥٥ و١٧٥٧ .

وفي ٨ يناير سنة ١٧٥٤ يعود في سجل العماد ذكر اسم الخواجا يوسف بكتي ابن الخواجا نعمه الملكي Melchita الدمشقي . وقف عراباً لطفل احد الانكليز المدعو برودرين

وفي ٩ ابريل سنة ١٧٥٥ يذكر هذا السجل الخواجا يوسف فرنجي الدمشقي كعراب لاحد اولاد الانكليزي المذكور . وفي ١٥ مارس سنة ١٧٥٨ يذكر السجل نفسه عماد انطون بن هلينه بنت صليب وسلطانه وعماد يوحنا بن عيسى وهيلنه من طائفة الارمن وكان الخواجا فرنسيس ماريون القنصل الامبراطوري عراباً للمذكورين

وفي ٥ مايو سنة ١٧٥٩ يذكر سجل الوفاة ان كاترينا المارونية من طرابلس سوريا دفنت في معبد القديس مرقس الكائن في مقبرة الاقباط

٤ — المهاجرة السورية الى الاسكندرية من سنة ١٧٦٠ — ١٧٧٣

واليك بيان اسماء بقية الاسر كما جاءت في السجلات مع التنبيه اننا نشير الى هذه السجلات بالحرف الاول منها ولا نذكر سوى الاسماء الواردة فيها لاول مرة .

١٧٦٢

ع مرتا بنت جرمانوس بن يوحنا وكاترينا بنت يوحنا المارونيين

١٧٦٤

و . مخايل عفانه توفى في سن مائة وسنتين

١٧٦٥

ع . يونيو . حنا جبرايل بن ايرونيموس وكاترينا المارونيين

نوفمبر . مريم بنت جرجس مسكاوي الدمشقي وتقلا

الست فاضله فرنجي مسكاوي

١٧٦٦

سجل الخطبة . بولس عفانه التاجر الحلبي ر ك بحضور جرجس مسك التاجر الحلبي ر ك

١٧٧٠

ز . يوحنا زنانيري وزوجته فضلو الدمشقيين

ع . جبرايل عيد

١٧٧١

ز . عمنويل خوري . جبرايل اصلان ارمني. كلاهما من حلب

ع . نعمه كرمه من رعية رشيد . بطرس مانوشي الماروني

١٧٧٢

ز . ميخايل شقرّق ر ك من دمشق . عبود سوسه . ميخايل فندق . مريم بنت يوسف بيطار

ع . يوسف وتقلا بيطار ر ك من دمشق

١٧٧٣

ع . جرجس نصار . نقولا شعر ر ك من حلب . الياس فيل ارمني من حلب .

ز . ابرهيم شدياق تكلل على ترزيا بنت شكر الله ر ك من حلب

و . موسى غرغور الدمشقي

الفصل العاشر

المهاجرة السورية الى مصر في آخر عهد المماليك

١٧٧٤ – ١٨٠٥

١ – المهاجرة الى القاهرة

في سنة ١٧٧٤ استقل كهنة الروم الكاثوليك بخدمة ابناء طائفتهم بالقاهرة وصاروا يقومون بتعميدهم وتكليلهم وتسجيل اسمائهم في سجلات خاصة بهم. لذلك لم نعد نرى لهم ذكراً بعد هذا التاريخ في سجلات الآباء الفرنسيسكان المختصة بالعماد والاكليل فاخذنا اسماء الاسر المهاجرة منهم بين سنة ١٧٧٤ وسنة ١٨٠٥ عن سجل العماد المحفوظ في بطركخانة هذه الطائفة بالفجالة.

ولما كان الآباء الفرنسيسكان لم يسلموا الى هذه الطائفة المقبرة التي وقفها لها الكونت انطون فرعون الا بعد ان حكمت رومية لها بهذه المقبرة في سنة ١٧٩٤، فقد ظل الآباء المذكورون يتولون حتى هذه السنة دفن المتوفين من هذه الطائفة وتسجيل اسمائهم في سجلاتهم. ولما كان لبعض اسر هذه الطائفة مدافن خاصة في مقبرة الفرنسيسكان فقد اقتصرت سجلات هؤلاء الآباء بعد سنة ١٧٩٤ على ذكر المتوفين من هذه الاسر.

واليك اسماء المهاجرين من السوريين الى القاهرة من سنة ١٧٧٤ الى سنة ١٨٠٥ التي آلت فيها الاحكام في القطر المصري الى محمد علي باشا جد الاسرة المالكة وانتهت فيها سلطة المماليك. وقد اشرنا الى الاسماء المأخوذة عن سجل العماد لطائفة الروم الكاثوليك بحرفي عك تمييزاً لها عن بقية الاسماء المأخوذة عن سجلات الفرنسيسكان والتي اصطلحنا على الاشارة اليها بحروف ع. ز. و. الدالة على سجلات العماد والزواج والوفاة كما سبق القول:

١٧٧٤

ع . صوفيا بابوجه

١٧٧٦

ز . نعمة الله غندور سك

١٧٧٩

ز . عبد الله عيسى . ع . ماريا دياب حلبية م
سجل التثبيت. ماريا قطان

١٧٨٠

ز . الياس البلدي حلبي
ع . انطون اسطنبولي . انطون العصافيري
سجل التثبيت . يوسف قيشاني . يوسف طباخ (سك) انطون شراباتي .
يوسف مسرور . يوسف عوره

١٧٨١

سجل الخطوبة . انطون قطاع ر ك
ز . جرجس شبيب ر ك . يوحنا رباط سك
جورج رونجيبال حلبي . ماريا سميان حلبية م

١٧٨٢

ز . يوسف ابو جرجس م . يوسف خرزه ر ك
يوسف عاقله ر ك
عك . بطرس جفليه . ميخائيل بولاد (من دمشق)

١٧٨٣

و . ماريا بنت معتوق ر ك من دمشق . يوحنا الياس صليبي
عك . جرجس الرقاص

١٧٨٤

ع . ميخائيل برج ماروني (من دمياط) [1]

و . الياس كوسا حلبي ماروني . يوحنا بخيت ر ك

انطون رزق الله م . ميخائيل الابيض سك . يوسف اصلان ر ك

ابرهيم راعي . يوسف فريج م . فرنسيس فيضون سك . فرنسيس الحكيم سك

ابرهيم الحمصاني الارمني . ماريا بنت جرجس الاسود ر ك (غير اسرة الاسود المارونية المعروفة)

عك . انطون زحلاوي

١٧٨٥

و . نعمه شقرا ر ك . يوسف ابو صفا ر ك حلبي

ميخائيل خردل ر ك . جرجس سيوفي ر ك

يوسف شامي قمداري ر ك . انطون ناكوزه

ابرهيم مشاطي ر ك . انطون خباز الارمني

شكري بن موسى سك . يعقوب سيما ارمني

جرجس المصري سك . يوسف طويل ر ك . يوحنا صليب ر ك

يوسف مهنا سك . يوسف رزقه ر ك . يوسف حسيب ر ك

ميخائيل طراد ر ك . موسى المخلع ر ك . عبد الله المالطي ر ك

عك . نقولا البدعي

١٧٨٦

و . ميخائيل حنون ر ك . جرجس عشيباشي ر ك . فرنسيس خزندار ر ك

جرجس كنعان م . فرنسيس الحداد ر ك . انطون زيدان ر ك . يوسف مملوك لاتيني

---

١) اتبعت هذه الاسرة الطقس اللاتيني وهي من اقدم اسر دمياط المارونية

١٧٨٧

عبد الله البستاني م . يوسف شمعه م . فرنسيس الصراف . انطون غناجه ر ك
ميخائيل نجمه ر ك . يوسف سيوفي ارمني . ميخائيل شاشاتي ر ك . ساره بنت
الحلاق

عك . يوسف طبوش . سليمان قصعه

١٧٨٨

و . الياس حكيم م . الياس الخوام ر ك

عك . يوسف مرقده . ابرهيم موسى البيضه . ابرهيم مرقس

١٧٨٩

و . ميخائيل مباردي ر ك . عبد الله ارقش ر ك

عك . خليل قصرملي ر ك . ابرهيم باشا ر ك

١٧٩٠

و . يوسف جروه سك

عك . سلوم الصيقلي

١٧٩١

و . حنا سلاوي (سك) . نقولا سيور ر ك . حنا غنام ر ك

عبد الله قلوسه حلبي ماروني . لوقا غليونجي (رك)

عك . خليل العدوي

١٧٩٢

و . فضله خلاط ر ك . يوسف حتحوت ر ك

موسى فارس ر ك

عك . داوو الاعمش

١٧٩٣

و . موسى شراباتي م . عابد قصاب سك . نقولا درزي رك

١٧٩٤

و . توما الخياط م . بطرس مسابكي م . انطون الاصفر سك

١٧٩٥

عك . انطون الهواني . فرنسيس الغول . يعقوب كاتب

١٧٩٦

و. فيلثاوس شبير

عك . الياس سمور

١٧٩٨

و . يوسف شليطا م . جرجس مسكاتي رك نقولا سرّاق م

١٧٩٩

سليمان اليان سك . يوسف ميلاد سك

جبرايل الحاج

١٨٠٠

ز . يوسف محاسب (م) انطون مدكور . يوسف المزيّن ارمني

يوسف جوهرجي ارمني .

و . جرجس شالاتي ارمني . مخائيل الالفي ارمني

عك . ابراهيم الاهواني . الياس حنانيا . يعقوب ابو الحبايب

١٨٠١

ز . يوسف حوّاره

يوسف صادر م . مريم نصري رك . بطرس طويل الارمني

عك . حنا عطايا

١٨٠٢

و . حنا اشعيا
عك . حنا الجلاّ

١٨٠٣

حنا دمياطي . ميخايل صيفي قصابجي . يوسف كرم

١٨٠٤

عك يوسف شمانيه . نصرالله شاشي . يوسف حزير . يوسف سمعاني . يوسف د بر
و . يعقوب بن يوسف (عزيز) الترجمان الحلبي الماروني
يوسف سرور رك

١٨٠٥

عك يوسف قريصاتي . جبران الحلو

٢ — المهاجرة السورية الى الاسكندرية (١)

١٧٧٤

يذكر سجل الزواج في ١٧ يوليو من هذه السنة الاب اسطفان الراهب الماروني الذي حضر مع يوحنا زنانيري اكليل المدعو لويس كومبا لاستري اللاتيني
ع . يوسف مملوك . يوسف فرحات . روزا زمرود . الياس بربر

١٧٧٥

ع . ميخائيل لطف الله من طرابلس
ز . اسطفان شدياق تكلل على مريم بنت الخوري كلاهما حلبيان وسريان كاثوليك وكان الاشبين يوسف شماس وانطون شدياق وصار الاكليل في البيت
و . انطون يوسف فرحات . الياس اغيا . مخايل لطف الله محفوض

١٧٧٦

ز . رزق آدم بن بلطزار الارمني . جبرايل عيد

---

١) لا يوجد للرك سجلات خاصة في هذه المدة لانهم كانوا فيها تابعين للاباء الفرنسيسكان في الروحيات

ع . حنانيا فرعون . يوسف زخار . نقولا شحيره . مخائيل طرابلسي

١٧٧٨

ع . رزق الله فياسه . جرجس خويميرك . جرجس فتال . جرجس قزما

ز . بطرس عفانه . موسى قطه . انطون صيفي

١٧٧٩

ع . ميخائيل طرابلسي

ز . يوسف خوري حنا

١٧٨٠

ع . السيدة عراطه زوجة اوغسطيني القنصل الامبراطوري

١٧٨١

ز . جرجس ابي شعيا الماروني . انطون شاهين

و . بطرس صايغ . بشاره الحمصّي . يوسف مرعب . يوسف ابن زمورم توفوا بالطاعون

١٧٨٢

ز . نقولا درزي . جبرايل شراباتي . يوحنا كرمس . انطون عجم

و . يوسف سمن من بيروت رك

١٧٨٤

ز . ابرهيم عجوري . نطون شاهين شلبي كلاهما حلبيان

و . يوسف ابو مناخير ارمني من حلب . انطون بركات

١٧٨٥

ع . يوسف عرقجي . فرنسيس سابا (سبع ؟) . عبد الله براشيا ارمني . مريم خراط . انطون ساسي الدمشقي . حنا كرباج رك من حلب . آدم جوهرجي . بطرس بن العنحوري

و . يوسف القدسي . مريم بنت حنانيا

١٧٨٦

ز . ابرهيم سلامه . وستين بنت عبد العزيز . الياس خراط ابن يعقوب من بيت الخوري عبود . ابرهيم دوده . نعمه بسيريني

ع . اسطفان كرم . انطون بركات من طرابلس سوريا م . ترزيا بنت آجيا ارمنية . سوسنه بنت خوري حنا

١٧٨٧

ع . ماريا بنت الماروني من اسطنبول . يوسف سلامه

١٧٨٨

ع . ميخائيل تاجر سك . ترزيا حجار حلبية ارمنية . يوسف عبسي . اسطفان كرم م من طرابلس

ز . ابرهيم المكنى خطأ مسك واسم اسرته الحقيقي شعر بقر . عزيزه بنت برغل . الياس بن يعقوب كرابيكات الحلبي الارمني . منصور الصباغ . سيده بنت قسطرجي

١٧٨٩

ع . فيلبوس بن مريم من اسرة الخوري الياس زندق . جرمانوس دقاق . يوسف آدم

١٧٩٠

ع . فرنسيس حمام المعروف باسم حمامه من اورشليم . حنا بن انطون اليازجي

و . اصلان الارمني المعروف بالديار بكرلي

ز . مريم سكاكيني

١٧٩١

ع . يوسف صيدح

و . نقولا مرعب الماروني . لوسيا بنت انطون من بيت برق مارونية من بيروت

١٧٩٢

و . افراسيا من اسرة عايده (رك من حلب)

١٧٩٣

ز . يوحنا انطون تخاخ من دمشق . الياس دياب التاجر من قبرص . انطون سليمان زياد

و . يوسف خوري الدمشقي . يوحنا ابن انقره (م . من حلب) . مريم بنت عبد المسيح الماروني

١٧٩٤

ع . ميخائيل فرج الله

ويذكر حضور الاب يوسف دحدح خوري الموارنة في مدينة طرابلس

عماد يوسف نصر الله بن موسى قطه

يوسف بن فتح الله حمصي من حلب رك

١٧٩٥

ع . جرجس بن الياس فيدال (طيطي) ماروني من حلب

و . يوسف مصور رك من حلب

١٧٩٦

ع . حنا مرقس رك من دمشق

ز . برباره بنت بطرس المطران الحلبية

ويذكر السجل اكليل انطون يوسف زكار (رك) وهيلينه دنفق (سنجق) على اغابيا بنت الخواجا جورج عيد . وكان المكلل الاب جرجس دحداح الماروني باذن الاب الفرنسيسكاني

و . لوسيا امرأة انطون لباد

١٧٩٧

ع . مخائيل فندي . موسى غرغور

١٧٩٨

ز . ترزيا مسلم

١٧٩٩

ع . يوسف قهوجي . ميخائيل فرج الله شاهين من بيروت . يوسف طويل من حلب

١٨٠٠

ز . مريم دقاق من دمشق . يوسف مسره
و . مخايل شكري سك

١٨٠١

ع . فتح الله شاشيه . مريم حتحوت

١٨٠٢

ع . عبد الله بولاد تاجر دمشقي
ز . نصر الله بن شكر الله جروه على مريم حوا ؟ كلاهما حلبيان . لطيفه كاليرا (م من قبرص) . جبرايل حلو

١٨٠٣

ع . الياس دادور . هيلينه ميلاد
ز . انطون سمنه . انطون دادور الحلبي الارمني . اسطفان برتولو

١٨٠٤

ع . مريم حواره الحلبية . مخائيل دبانه . يوسف انطون القبرسي (من اسرة زياد)
ز . غريغوريوس بن بطرس صافير من ازمير . مريم صيقلي من صيدا

٣ — المهاجرة الى دمياط

جاء في تاريخ ضاهر العمر الذي نشره حضرة الاب قسطنطين باشا : ان حبيب الصباغ والد ابرهيم كاتب الشيخ ضاهر العمر جاء الى دمياط سنة ١٧٠٠ للتجارة واقام فيها تسع سنين . ويذكر هذا التاريخ من تجار السوريين الاولين في هذا الثغر بيت صوايا وبيت صيدح .

وقد تكرم علينا صاحب السعادة احمد باشا تيمور بفقرة من كتاب محفوظ في خزانته عن مشيخة فرنسا وحروبها في مصر نسخها انطون الياس قطه الشامي اصلا الذي هاجر الى دمياط سنة ١٧٩٠ وخرج منها الى القاهرة في اخر سنة ١٨٠١ مع الخواجا يوسف حكيم وحنا السلموني وفرنسيس سابا للتظلم الى الصدر الاعظم من ابرهيم باشا الحلبي

واليك ما وجدناه في سجل طائفة الروم الكاثوليك القديم من اسماء السوريين القاطنين في دمياط بين سنة ١٧٩٧ الذي يبدأ فيها السجل وسنة ١٨٠٥

١٧٩٧

ع . الياس مسديه . نقولا بن يوسف وورده دوده . فرنسيس قطه . حنا دبانه . ميخائيل مقصود . حنا صايغ . شبلي دراج . انجلينا عسيلي . خليل فرح من صور . سعده صيقلي من عكا . حنا ضاي ارمني كاثوليكي . ميخائيل حموي . حنونه كرباج انجلينا سيستو

ز . توما غريب . يوسف عبد الخالق . ميخائيل خبيه . يوسف حكيم

١٧٩٨

ع . جرجس اسود . ورده عكاوي . حنا كساب . طاناس بخشون . ابرهيم شحيره . ورده حلبي . حنا سرور . حنه سلموني . حنه كاتب . انطون نشو . برباره وستين . الياس غصن . سيده قلاّسمك

١٧٩٩

ع . فرنسيس سابا . هيلانه محفوض . سليمان عكاوي . ابرهيم طويل عكاوي آسين نصر الله . شحاده نوفل . ابرهيم عواده . بطرس عنحوري . يوسف فسفس

١٨٠٠

ع . نقولا ستيري . خليل بيروتي . . . صاصي . . . نحاس . كاترينا بطرس ترك من صور . مادلينا واو

١٨٠١

حنا سلموني . اسحق كاتب . ميخائيل مالو . يوسف صهيون

١٨٠٢

ع . رفقا صاحب . تقلا نقولا . راعي مليحه

ز . جرجس عسيلي بيروتي

١٨٠٥

ع . انطون سرور . ميخائيل اسحق . جبور قبرصلي . ميخائيل الترك . حنا صالحه . حنا عطالله . توما رزق الله

***

فأنت ترى من قراءة هذه الاسماء ان اغلب الاسر السورية المستوطنة الآن القطر المصري قدم اجدادها الى هذا القطر قبل محمد علي باشا رأس الاسرة الحاكمة الآن في هذا الوادي السعيد . وكان عددها في القاهرة وحدها يزيد عن اربعمائة اسرة فضلا عن تلك التي لم تذكرها السجلات او لم نتوصل الى قراءة اسمائها . وهذا العدد يدل على ان الجالية السورية بالقاهرة بلغت في عهد المماليك الفي نفس على اقل تقدير هاجر اغلبها في اواسط القرن الثامن عشر اي قبل مجيء الاسرة المالكة بخمسين سنة . وسنثبت في ما يلي من هذا الكتاب ان الجالية السورية في القطر

واذا كان للاسرة العلوية الفضل الاكبر في ما وصلت اليه مصر الآن من الرقي المصري قدمت لهذه البلاد خدماً جلى بل كانت اهم عنصر في نجاحه المادي والادبي. والرفاهية فقد كان السوريون ساعدها الايمن في كل المشاريع التي جلبت لمصر هذه الرفاهية واوصلتها الى هذا الحد من الرقي . ومع ذلك يقوم فريق من الجهلة فيعير السوريين بالدخلاء مع اننا لو استقصينا عن اصل هؤلاء المتعصبين لوجدناهم احدث عهداً في هذا القطر من السوريين . والغريب ان يعد غير المسيحي من المهاجرين مصرياً بعد حلوله في هذه البلاد ببضع سنين ويلقب بالدخيل السوري المسيحي الذي استوطن اجداده هذه الديار من مائتين او ثلاثمائة سنة . وقد نما فيها وامتزج باهلها وتزوج منهم وجرى على عاداتهم ونطق بلهجتهم وحافظ على شرائعهم وقوانينهم ودفع ضرائبهم واعتبر مفروضاً عليه ما هو مفروضاً عليهم . وقد اصبح مصرياً بكل معنى الكلمة وصار جسمه مركباً من عناصر هذه البلاد لانه اكل من خبزها وشرب من مائها وتنفس من هوائها . وقد ضمر جسمه واسمرت بشرته وخفت حركته . فاذا عاد الى وطنه القديم استغربوا من شكله وعجبوا من عربيته المكسرة فعدوه غريباً وعرّفوه بالمصري

انتهى

القسم الاول

من الجزء الاول

Les Syriens
EN
Egypte

Par

L'ABBÉ PAUL CARALI

PROPRIÉTAIRE - RÉDACTEUR DE LA REVUE SYRIENNE

TOME Ier

Au temps des Mamlouks

Ière Partie

LES RELATIONS ENTRE LA SYRIE ET L'EGYPTE

DEPUIS LE COMMENCEMENT DE L'HISTOIRE

JUSQU ' A MÉHÉMET ALY (1805)

1° Relations politiques, économiques et scientifiques

2° Les Syriens Jacobites en Egypte au Moyen Age

3° L'émigration des Catholiques au Caire et à Alexandrie

1618 — 1805.

Imprimerie Syrienne à Héliopolis, Egypte

DATE DUE

JUL 01 2002

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040271269

197

BR
190
.C3
1

07656300
BR 190
.C3 V1 C1
LES SYRIENS

SEP 6 1972

BR-190-.C3

1